رواية

ميلان كونديرا

الجهل



ترجمة: معن عاقل

المركز الثقافي العربي

ميلان كونديرا

الجهل

رواية

ترجمة

معن عاقل

المركز الثقافي العربي

الكتاب

الجهل

تأليف

ميلان كونديرا

ترجمة

معن عاقل

الطبعة

الأولى، 2013

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-648-6

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

هذه ترجمة عن اللغة الفرنسية لكتاب:

L'ignorance

Milan Kundera

1

«ماذا تفعلين هنا الآن!» لم يكن صوتها خبيثاً، لكنه لم يكن لطيفاً أيضاً؛ كانت سيلفي مستاءة.

- سألت إيرينا: «وأين يجب أن أكون؟

- في بلدك!

- هل تقصدين أنني هنا لست في بلدي؟»

بالتأكيد لم تكن تريد طردها من فرنسا ولا الإيحاء لها أنها غريبة وغير مرغوب فيها: «أنت تعرفين ما أقصد!»

- أجل، أعرف، لكن هل نسيت أن لدي عملاً هنا؟ وبيتاً؟ وابنتين؟

- اسمعي، أعرف غوستاف، سيبذل ما بوسعه لكي تتمكني من العودة إلى بلدك، وبالنسبة إلى ابنتيك، كفاك هزلاً، أصبحت لهما حياتهما الخاصة! يا إلهي يا إيرينا، ما يحدث في بلدك مذهل للغاية! في مثل هذه الحالة تنتهي الأمور دوماً إلى تسوية.

- لكن يا سيلفي، ثمة ما يتعدى الأمور العملية، كالعمل والبيت، فأنا أعيش هنا منذ عشرين عاماً، حياتي هنا.

- «وهناك في بلدك ثورة!» قالت ذلك بنبرة لا تحتمل الاعتراض. ثم سكتت. وبهذا الصمت كانت تريد أن تقول لإيرينا إنه يجب عدم الفرار عندما تقع الأحداث العظيمة.

«لكنني إذا عدت إلى بلدي، فلن نرى بعضنا ثانية» قالت إيرينا لكي تحرج صديقتها.

أخفقت هذه الديماغوجيا العاطفية، وأصبح صوت سيلفي ودياً: «سأذهب لرؤيتك يا عزيزتي، هذا وعد، هذا وعد!»

كانتا تجلسان وجهاً لوجه أمام فنجانَي قهوة فارغين منذ زمن طويل. رأت إيرينا دموع تأثُّر في عيني سيلفي التي انحنت نحوها وضغطت على يدها: «هذه ستكون عودتك العظيمة» وأيضاً مرة أخرى: «عودتك العظيمة».

وبهذا التكرار اكتسبت الكلمات قوة لدرجة أن إيرينا رأتها مكتوبة بأحرف كبيرة: عودة عظيمة، ولم تعد تقاوم: كانت مفتونة بصور انبثقت فجأة من قراءات قديمة وأفلام، ومن ذاكرتها الخاصة وربما ذاكرة أجدادها: الابن المفقود الذي يعود من جديد إلى أمه العجوز؛ الرجل الذي يعود إلى محبوبته التي اختطفه قدرٌ قاسٍ منها؛ منزلُ مسقط الرأس الذي يحمله كل شخص في نفسه؛ الدربُ المستكشف من جديد الذي بقيت خطوات الطفولة الضائعة منقوشة عليه؛ عوليس الذي يرى ثانية جزيرته بعد سنوات من التيه؛ العودة، العودة، السحر العظيم للعودة.

2

العودة في اليونانية تعني **نوستوس** "nostos" **وألغوس** "algos" تعني معاناة. النوستالجيا إذاً معاناة تسبّبها الرغبة غير المشبعة للعودة. وللتعبير عن هذا المفهوم يمكن لأغلبية الأوروبيين أن يستخدموا كلمة من أصل يوناني (**نوستالجي. نوستالجيا**) ثم كلمات أخرى لها جذور في اللغة الوطنية: الإسبان يقولون añoranza؛ والبرتغاليون يقولون saudade، وفي كل لغة تتمتع هذه الكلمات بصبغات دلالية مختلفة. وغالباً ما تعني الحزن فقط الذي تسببه عدم إمكانية العودة إلى الوطن. الحنين إلى الوطن. الحنين إلى مسقط الرأس. في اللغة الإنجليزية يقال: homesickness، أو في اللغة الألمانية: Heimweh. في الهولندية: heimwee، لكن هذا اختزال مكاني لهذا المفهوم العظيم. الأيسلندية، وهي إحدى أقدم اللغات الأوروبية، تميز بين كلمتين: söknudur: الحنين في معناه العام؛ وheimfra: الحنين للوطن. التشيك، فضلاً عن كلمة **نوستالجيا** المأخوذة من اليونانية، لديهم لهذا المفهوم اسمهم الخاص، stesk، وفعلهم الخاص؛ وعبارة الحب التشيكية البليغة الأثر: stýská se mi po tobě: أحن إليك؛ لا يسعني مكابدة ألم غيابك. في الإسبانية، añoranza من الفعل añorar (حن) المشتق من اللغة الغاتلانية enyorar، المشتق هو أيضاً من الكلمة اللاتينية ignorare (جهل). وفي

ضوء هذا الاشتقاق، يبدو الحنين كأنه مكابدة الجهل. أنت بعيد ولا أعرف كيف أصبحت. بلدي بعيد ولا أعرف ما يحدث فيه. بعض اللغات تعاني صعوبات مع الحنين: لا يستطيع الفرنسيون التعبير عنه إلا باسم من أصل يوناني وليس لديهم فعل؛ يمكنهم القول: je m'ennuie de toi أي **أتألم لغيابك**، لكن كلمة s'ennuyer باهتة وباردة، وعلى أية حال خفيفة للغاية بالنسبة إلى شعور جليل. الألمان نادراً ما يستخدمون كلمة الحنين في شكلها اليوناني ويفضلون القول Sehnsucht: الرغبة بما هو مفقود؛ لكن Sehnsucht يمكن أن تشير إلى ما كان كما إلى ما لم يكن قط (مغامرة جديدة) ولذلك لا تتضمن بالضرورة فكرة nostos؛ ولإدراج وسواس العودة في Sehnsucht لا بد من إضافة متمم: Sehnsucht nach der Vergangenheit, nach der verlorenen Kindheit, nach der ersten Liebe (الرغبة بالماضي، بالطفولة المفقودة، بالحب الأول).

ولدت **الأوديسة** (L'Odyssée)، الملحمة، المؤسسة للحنين، في فجر الثقافة اليونانية القديمة. لنؤكد على ذلك: عوليس، وهو أعظم مغامر على مرّ العصور، هو الأكثر حنيناً أيضاً. ذهب (من دون رضى كبير) إلى حرب طروادة حيث بقي عشر سنوات. ثم سارع للعودة إلى مسقط رأسه إيثاكا، لكن دسائس الآلهة أطالت رحلته في البداية ثلاث سنوات مليئة بالأحداث الخارقة، ثم أمضى سبع سنوات، رهينةً وعاشقاً،

عند الحورية كاليبسو، التي تولهت به، فلم تدعه يغادر جزيرتها.

في النشيد الخامس من **الأوديسة**، يقول لها عوليس: «رغم كل حكمتها، أعرف أن بنلوب ستكون إزاءك بلا عظمة ولا جمال... ومع ذلك ما أتمناه كل يوم هو أن أعود إلى هناك، وأن أرى في منزلي نور العودة!» ويتابع هوميروس: «بينما كان عوليس يتكلم، غابت الشمس؛ وحل الغسق: دخلا تحت القبة إلى عمق الكهف ليظلا متحاضنين يتبادلان الحب».

لا شيء يمكن أن يقارن بحياة المهاجرة المسكينة التي عاشتها إيرينا زمناً طويلاً. فعوليس عاش عند كاليبسو حياةً حقيقية حلوة، حياة سهلة، حياة فرحة. ومع ذلك، بين الحياة الحلوة في الغربة وخطر العودة إلى المنزل، اختار العودة. وفضَّل تمجيد المعلوم (العودة) على شغف اكتشاف المجهول (المغامرة). وفضَّل النهاية (لأن العودة هي مصالحة مع نهائية الحياة) على اللانهاية (لأن المغامرة لا تطمح أبداً إلى نهاية).

وضع بحارة فياسيا عوليس على شاطئ إيثاكا ملفوفاً بالأغطية عند جذع شجرة زيتون دون أن يوقظوه، ومضوا. هكذا انتهت الرحلة. كان نائماً ومنهكاً. عندما استيقظ لم يعرف أين هو. ثم أزالت أثينا الغشاوة عن عينيه، وشعر بالنشوة؛ نشوة العودة العظيمة؛ نشوة المعلوم؛ الموسيقى التي صدحت بين الأرض والسماء: شاهد المرسى الذي يعرفه منذ طفولته، والجبل الذي يشرف عليه، وداعب بنشوة شجرة

الزيتون القديمة ليتأكد أنها ظلت كما كانت قبل عشرين عاماً.

في عام 1950، وبينما كان أرنولد شونبرغ في الولايات المتحدة منذ سبعة عشر عاماً، طرح عليه صحفي بمكر بضعة أسئلة ساذجة: هل صحيح أن الهجرة تُفقد الفنانين قوتهم الخلاقة؟ وهل ينضب إلهامهم حين تتوقف جذور بلدهم الأم عن تغذيته؟

تصوروا! بعد خمس سنوات من الهولوكوست! وصحفي أمريكي لا يغفر لشونبرغ عدم تعلقه بقطعة الأرض التي انطلق فيها أمام عينيه رعب الرعب! لكن لا يمكن فعل شيء. فهوميروس مجَّد الحنين بإكليل غار واشترط هكذا تراتبية أخلاقية للمشاعر، تتربع بنلوب على قمته، أعلى بكثير من كاليبسو.

كاليبسو، آه يا كاليبسو! غالباً ما أفكر فيها. أحبت عوليس. عاشا معاً سبع سنوات. ولا أحد يعرف كم من الوقت شاطر عوليس بنلوب سريرها، لكن بالتأكيد ليس لزمن طويل. مع ذلك يُمَجَّد ألمُ بنلوب ويُسْخَر من دموع كاليبسو.

3

كضربات فأسٍ تسِمُ التواريخ العظيمة القرنَ العشرين الأوروبي بأخاديد عميقة، الحرب العالمية الأولى 1914، والثانية، ثم الثالثة، الأطول، والمسماة باردة، التي انتهت عام

1989 باختفاء الشيوعية. وعلاوة على هذه التواريخ العظيمة التي تخص أوروبا كلها، ثمة تواريخ ذات أهمية ثانوية تحدد مصير أمم بعينها: عام 1936 الحرب الأهلية في إسبانيا؛ عام 1956 الاجتياح الروسي لهنغاريا؛ عام 1948 عندما ثار اليوغسلاف ضد ستالين، وعام 1991 عندما شرعوا جميعاً يقتتلون فيما بينهم. يتمتع الإسكندنافيون والهولنديون والإنجليز بميزة أنهم لم يعرفوا أي تاريخ مهم بعد عام 1945، وهو ما أتاح لهم أن يعيشوا بنعيم نصف قرن ملغى.

تاريخ التشيك في هذا القرن يزدهي بجمالٍ رياضي جديرٍ بالملاحظة يعزى إلى تكرار الرقم عشرين ثلاث مرات. ففي عام 1918، وبعد قرون عديدة، حصلوا على دولتهم المستقلة، وفي عام 1938 فقدوها.

في عام 1948، الثورة الشيوعية المستوردة من موسكو دشنت بالرعب العشرينية الثانية التي انتهت عام 1968 عندما اجتاح الروس، بعد أن أغاظهم تحرره المتغطرس، البلد بنصف مليون جندي.

استقرت السلطة المحتلة بكل ثقلها في خريف عام 1969 وغادرت، دون أن يتوقع أحد ذلك، في خريف 1989، بنعومة وتهذيب، كما فعلت آنذاك جميع الأنظمة الشيوعية الأوروبية: إنها العشرينية الثالثة.

في قرننا فقط، استحوذت الأحداث التاريخية بنهم فائق على كل شخص. ويستحيل أن نفهم وجود إيرينا في فرنسا

دون أن نحلل أولاً التواريخ. في سنوات الخمسينيات والستينيات، كان مهاجر البلدان الشيوعية محبوباً قليلاً؛ وكان الفرنسيون حينذاك يعتبرون الفاشية هي الشر الوحيد الحقيقي: هتلر وموسوليني، وإسبانيا فرانكو، ودكتاتوريات أمريكا اللاتينية. وقرروا شيئاً فشيئاً في نهاية سنوات الستينيات وخلال السبعينيات أن يعتبروا الشيوعية أيضاً كشر، ولو شراً من درجة أدنى، ولنقُل، الشر رقم اثنين. في تلك الفترة، وبالتحديد في عام 1969، هاجرت إيرينا وزوجها إلى فرنسا. وسرعان ما أدركا أن المصيبة التي حلَّت ببلدهما مقارنة بالشرّ رقم واحد كانت أقل دموية ممّا ينبغي لإثارة مشاعر أصدقائهم الجدد. وحتى يشرحا الأمر اعتادا أن يقولا تقريباً هذا:

«مهما كانت دكتاتورية الفاشية مرعبة ستختفي بزوال دكتاتورها، بحيث يمكن للناس أن يحتفظوا بأمل. وعلى العكس، الشيوعية المدعومة من الحضارة الروسية العملاقة هي بالنسبة إلى بولونيا وهنغاريا (حتى دون التحدث عن إستونيا!) عبارة عن نفق بلا نهاية. فالدكتاتور فانٍ، أمّا روسيا فخالدة. ومصيبة البلدان التي جئنا منها أنها تقوم على الغياب الكامل للأمل».

كانا يعبِّران هكذا بأمانة عن فكرتهما، وكانت إيرينا، لكي تدعمها، تستشهد برباعية جان سكاسل الشاعر التشيكي المعاصر: يتحدث عن الحزن الذي يحيط به، كان يود لو يحمله، ويذهب به إلى البعيد، ويصنع منه منزلاً، كان يود أن

ينزوي فيه ثلاثمئة سنة، وخلال الثلاثمئة سنة ألا يَفْتَح الباب، وألا يُفْتَح عليه الباب!

ثلاثمئة عام! كتب سكاسل هذه الأبيات في السبعينيات ومات عام 1989، في الخريف، قبل بضعة أيام من تبدد ثلاثمئة عام من الحزن سبق أن رآها أمامه، وتبددت خلال بضعة أيام فقط: ملأ الناس شوارع براغ وحُزم المفاتيح في أيديهم المرفوعة أعلنت وصول الأزمنة الجديدة.

هل أخطأ سكاسل بالحديث عن ثلاثمئة سنة؟ بالتأكيد أخطأ، جميع التكهنات تخطئ، وهذه إحدى اليقينيات النادرة التي حظي بها الإنسان، لكنها حتى لو أخطأت، فإنها تقول حقيقة حول أولئك الذين يتلفظون بها، ليس حول مستقبلهم، لكن حول زمنهم الحاضر. خلال ما أدعوه عشرينيتهم الأولى (بين عامي 1918 و1938)، ظنّ التشيك أن جمهوريتهم أبدية. أخطأوا، لكنهم بالضبط لأنهم أخطأوا، عاشوا تلك السنوات بفرحٍ جعل فنونهم تزدهر كما لم تزدهر قط من قبل.

بعد الاجتياح الروسي، وبما أنه لم يكن لديهم أي فكرة عن النهاية القريبة للشيوعية، تصوروا من جديد أنهم يعيشون في الأبدية، فليس عذاب حياتهم الواقعية، وإنما خواء المستقبل هو الذي ثبط قوتهم، وخنق شجاعتهم وجعل هذه العشرينية الثالثة في غاية الجبن وغاية البؤس.

أرنولد شونبرغ، الواثق أنه فتح آفاقاً بعيدة في الموسيقى بجمالية علاماته الاثنتي عشرة، صرَّح في عام 1921 أنه،

بفضله هو، ستتأكد هيمنة (لم يقل «مجد»، بل قال «هيمنة»، "Vorherrschaft") الموسيقى الألمانية (مع أنه، هو، من فيينا، لم يقل الموسيقى «النمساوية»، بل قال الألمانية) لمئة عام مقبلة (أنقل ذلك بدقّة، تحدث عن «مئة عام»). بعد اثني عشر عاماً من هذا التنبؤ، أي في عام 1933، نُفِي من ألمانيا لأنه يهودي (ألمانيا ذاتها التي أراد أن يؤكد هيمنتها)، ومعه كل الموسيقى التي أسسها على جماليته ذات العلامات الاثنتي عشرة (المحكوم عليها بأنها غير مفهومة ونخبوية وعالمية ومعادية للروح الألمانية).

ومهما يكن تكهُّن شونبرغ مخادعاً، يبقى مع ذلك ضرورياً لمن يريد أن يفهم معنى عمله، الذي ظن في قرارة نفسه أنه ليس هداماً ولا مستغلقاً ولا عالمياً، ولا فردانياً، ولا صعباً، ولا تجريدياً، إنما متجذر بعمق في «الأرض الألمانية» (أجل، كان يتحدث عن «الأرض الألمانية»)؛ لم يكن يعتقد أنه يكتب خاتمة ساحرة لتاريخ الموسيقى الأوروبية العظيمة (مع أنني أميل إلى فهم عمله على هذا النحو) إنما مقدمة لمستقبل مجيد يمتد على مد النظر.

4

منذ الأسابيع الأولى للهجرة؛ رأت إيرينا أحلاماً غريبة: إنها في طائرة تغير وجهتها وتهبط في مطار مجهول؛ رجال

مسلحون يرتدون زياً موحداً ينتظرونها عند أسفل سلم الطائرة؛ تعرَّفت، وجبينها يتفصد عرقاً بارداً، على الشرطة التشيكية. ومرة أخرى، وهي تتنزه في مدينة فرنسية صغيرة تشاهد مجموعة فضولية من النسوة اللاتي يجرين نحوها، كل واحدة منهن تحمل في يدها كوب بيرة، يوبخنها بالتشيكية، ويضحكن بمودة مرائية، لكن إيرينا ينتابها الذعر، وتدرك أنهن من قسم الشرطة السرية، وأنها في براغ، فتصرخ وتستيقظ.

زوجها مارتن كانت تراوده الأحلام ذاتها. عند كل صباح، كان كل واحد منهما يحكي للآخر عن رعب العودة إلى البلد الأم. بعد ذلك، خلال حديث مع صديقة بولونية، مهاجرة أيضاً، أدركت إيرينا أن هذه الأحلام تراود جميع المهاجرين، جميعهم بلا استثناء؛ تأثرت في البداية بهذه الأخوّة الليلية بين أشخاص لا يعرفون بعضهم بعضاً، وفي ما بعد انزعجت قليلاً: كيف يمكن لتجربة الحلم الفائقة الخصوصية أن تُعاش جماعياً؟ وماذا إذاً عن روحها الفريدة؟ لكن ما فائدة الأسئلة دون أجوبة؟ شيء وحيد كان مؤكداً: آلاف المهاجرين يحلمون طول الليل بالحلم ذاته، مع تنويعات لا تحصى. حلم الهجرة: إحدى أغرب الظواهر في النصف الثاني من القرن العشرين.

كانت هذه الأحلام/ الكوابيس تبدو لها على قدر من الغموض لدرجة أنها كانت تعاني في الوقت ذاته من حنين جامح وتخوض تجربة أخرى، مناقضة تماماً: كانت مشاهد

من بلدها تتقدم في النهار لتتبدى لها. لا لم يكن هذا حلم يقظة طويلٍ وواعٍ وإرادي، كان شيئاً آخر: كانت رؤى مشاهد تشتعل في رأسها، فجأة، وعلى نحو مباغت، وبسرعة، لتخمد على الفور. وهي تتكلم مع رئيسها، كانت ترى فجأة، مثل ومضة، طريقاً بين الحقول. وهي مستعجلة في عربة مترو، ينبثق فجأة أمامها خلال جزء من الثانية ممرّ صغير في حي أخضر في براغ. في كل نهار؛ كانت هذه الصور الخاطفة تزورها لتخفِّف من غياب بوهيميتها الضائعة.

كان السينمائي القابع في لا شعورها الذي يرسل إليها نهاراً نتفاً من مشهد وطنها باعتبارها صوراً سعيدة، هو ذاته ينظِّم في الليل عودات مرعبة إلى البلد ذاته. كان النهار يُضَاء بجمال البلد المهجور، والليل برعب العودة إليه. النهار يكشف لها الجنة التي فقدتها، والليل يكشف الجحيم الذي فرَّت منه.

5

وفية لتقاليد الثورة الفرنسية، حَرَّمَت الدول الشيوعية الهجرة، واعتبرتها أشنع الخيانات. وكل من بقوا في الخارج حُوكِموا غيابياً في بلدهم ولم يتجرأ مواطنوهم على الاتصال بهم. ومع ذلك، كانت قسوة التحريم تَضْعُف بمرور الزمن، وقبل بضع سنوات من عام 1989، حصلت أم إيرينا، الأرملة

منذ فترة وجيزة، المتقاعدة المسالمة، على فيزا لمدة أسبوع في إيطاليا من طريق وكالة سفريات تابعة للدولة؛ وفي العام التالي، قرَّرت البقاء خمسة أيام في باريس ورؤية ابنتها سراً. إيرينا، المتأثرة والمفعمة بالشفقة حيال أمٍّ تصورت أنها أصبحت هرمة، حجزت لها غرفة في فندق وخصَّصت لها نهاية عطلتها الصيفية لتتمكن من البقاء طوال الوقت معها.

قالت لها أمها حين التقتا: «لا تبدو حالتك سيئة للغاية»، ثم أضافت ضاحكة: «وأنا أيضاً، عندما نظر شرطي الحدود إلى جواز سفري، قال لي: جواز سفرك مزور أيتها السيدة! فهذا ليس تاريخ ميلادك!» وعلى الفور، عرفت إيرينا أن أمها لم تزل كما عرفتها دوماً وشعرت أن شيئاً لم يتغير بعد عشرين عاماً تقريباً. والشفقة حيال أم هرمة تبخرت. وتقابلت الابنة والأم ككائنين خارج الزمن، كجوهرين لا زمنيين.

لكن أليس من السوء ألا تفرح ابنة بوجود أمها التي جاءت لرؤيتها بعد سبعة عشر عاماً؟ استنفرت إيرينا كل عقلها وكل حسّها الأخلاقي لتتصرف كابنة وفية. اصطحبتها للعشاء في المطعم البانورامي في برج إيفل؛ ورَكِبَت قارب نزهة لتدلّها على باريس من نهر السين؛ وحين أرادت الأم زيارة معارض للّوحات الفنية، رافقتها إلى متحف بيكاسو. تمهلت الأم في القاعة الثانية: «لدي صديقة رسامة. أعطتني لوحتين كهدية. لا يمكنك أن تتصوري مقدار جمالهما!» ورغبت أن ترى أعمال الانطباعيين في القاعة الثالثة: «في «جو دو بوم» Jeu de

Paume ثـمـة مـعـرض دائـم. - قـالـت إيـريـنـا: هـذا لـم يـعـد موجوداً، الانطباعيون لم يعودوا في «جو دو بوم». - قالت الأم: «بلى، بلى، إنهم في جو دو بوم. أعرف ذلك ولن أغادر باريس دون أن أرى لوحات فان غوغ!» وبدلاً من فان غوغ، عرضت إيرينا عليها متحف رودان. تنهدت الأم أمام أحد تماثيله، حالمة: «في فلورنسا، رأيت تمثال دافيد لمايكل أنجلو! انعقد لساني من الدهشة! -انفجرت إيرينا، اسمعي، أنت معي في باريس، وأُرِيكِ رودان. رودان! هل تسمعين، رودان! أنتِ لم ترينه من قبل، فلماذا تفكرين بمايكل أنجلو أمام رودان؟»

كان السؤال صحيحاً: لماذا لم تهتم الأم عندما التقت ابنتها بعد سنوات بما تُريها إياه وتقوله لها؟ لماذا أَسَرَها مايكل أنجلو، الذي شاهدت أعماله مع مجموعة من السياح التشيك، أكثر من رودان؟ ولماذا طوال خمسة أيام لم تطرح عليها أي سؤال؟ ولا أي سؤال عن حياتها، ولا عن فرنسا أيضاً، ولا عن مطبخها، وأدبها، وأجبانها، ونبيذها، وسياستها، ومسارحها، وأفلامها، وسياراتها، وعازفي البيانو والكمان المفضلين لديها، ورياضييها؟

وبدلاً من ذلك، لم تتوقف عن الحديث عما يجري في براغ، عن أخ إيرينا غير الشقيق (الذي أنجبته من زوجها الثاني، المتوفى منذ فترة وجيزة)، وعن أشخاص ما زالت إيرينا تتذكرهم وآخرين لم تسمع قط بأسمائهم. حاولت مرتين

أو ثلاث أن تمرر ملاحظة عن حياتها في فرنسا، لكن كلماتها لم تتجاوز الحاجز المتماسك لخطاب أمها.

هكذا هي الحال منذ طفولتها: بينما كانت الأم تعتني بابنها برقة كأنه طفلة، كانت تتخذ حيال ابنتها موقفاً اسبارطياً على نحو رجولي. هل أريد القول إنها لم تكن تحبها؟ ربما بسبب أب إيرينا، زوجها الأول، الذي تحتقره؟ لنتجنب علم النفس الرخيص هذا. فسلوكها كان بنية حسنة: هي المفعمة بالقوة والصحة، كانت تقلق من نقص الحيوية عند ابنتها؛ وبأساليبها الفظة، كانت تريد أن تخلص ابنتها من حساسيتها المفرطة، تقريباً مثل أب رياضي يلقي بابنه الخائف في حوض السباحة، وهو مقتنع أنه وجد أفضل طريقة لتعليمه السباحة.

ومع ذلك، كانت تعرف حق المعرفة أن مجرد حضورها يسحق ابنتها ولا أريد الإنكار أنها كانت تستمتع سراً بتفوقها الجسدي. وإذاً؟ ماذا عليها أن تفعل؟ هل تلغي ذاتها باسم الحب الأمومي؟ كان عمرها يتقدم بلا رحمة وإحساسها بقوتها، كما تبدى في ردّ فعل إيرينا، يجدد شبابها. عندما رأتها بقربها، وجِلة ومستضعفة، راحت تُطيل قدر ما تستطيع لحظات تفوقها. راحت تتظاهر بنوع من السادية أنها تأخذ هشاشة إيرينا مأخذ اللامبالاة والكسل والتهاون، وتؤنبها.

شعرت إيرينا دوماً، بحضور أمها، أنها أقل جمالاً وذكاءً. كم مرة ركضت نحو المرآة لتتأكد أنها ليست قبيحة، وأنها لا تبدو بلهاء. . . آه، كل هذا صار بعيداً جداً، ومنسياً

تقريباً، لكن خلال خمسة أيام أمضتها أمها في باريس، استولى عليها من جديد هذا الإحساس بالدونية والضعف والتبعية.

6

قبل يوم من مغادرة أمها، عَرَّفتها إيرينا على غوستاف، صديقها السويدي. تعشى ثلاثتهم في مطعم، والأم التي لم تكن تعرف كلمة فرنسية واحدة استخدمت الإنجليزية ببسالة. ابتهج غوستاف لذلك: لم يكن يتحدث مع عشيقته إلا بالفرنسية ويشعر بالإرهاق من هذه اللغة التي يعتبرها متكلِّفة وغير عملية. في ذاك المساء، كفَّت إيرينا عن الثرثرة: لاحظت، وهي مندهشة، أمها التي أظهرت مهارة غير متوقعة في الاهتمام بشخص آخر؛ وبكلماتها الإنجليزية الثلاثين الملفوظة بشكل سيئ، غمرت غوستاف بالأسئلة عن حياته ومؤسسته وآرائه، وأدهشته.

في اليوم التالي، غادرت الأم. عند عودتها من المطار إلى شقتها في الطابق الأخير، ذهبت إيرينا إلى النافذة لتستمتع، في الهدوء المُسْتَعاد، بحرية وحدتها. نظرت ملياً إلى الأسقف، وإلى تنوع المداخن بأشكالها الغريبة، وإلى النباتات الباريسية التي حَلَّت منذ زمن طويل بالنسبة لها مكان الحدائق التشيكية، وأدركت كم هي سعيدة في هذه المدينة. كانت قد اعتبرت دوماً، كبديهة، أن هجرتها هي تعاسة، لكن

ها هي تتساءل في هذه اللحظة ما إن كان وَهْمُ التعاسة هو وهمٌ أوحت به الطريقة التي يفهم بها جميع الناس المهاجر؟ ألم تكن تقرأ حياتها بحسب إرشادات دَسَّها آخرون بين يديها؟ وقالت في سرها أن هجرتها، وإن كانت مفروضة من الخارج وضد إرادتها، ربما هي أفضل مخرج لحياتها دون أن تدري. كانت قوى التاريخ العتيدة التي اعتدت على حريتها قد حررتها.

هكذا ارتبكت قليلاً بعد بضعة أسابيع عندما أخبرها غوستاف بتباهٍ خبراً مفرحاً: اقترح على شركته أن تفتح مكتباً في براغ. ولأن البلد الشيوعي ليس جذاباً وتجارياً، سيكون المكتب متواضعاً، ومع ذلك ستسنح له الفرصة للإقامة هناك من حين إلى آخر.

- قال: «من المذهل أن أتواصل مع مدينتك»

وبدل أن تفرح، شعرت بنوع من التهديد الغامض.

- أجابت: «مدينتي؟ براغ لم تعد مدينتي».

- استغرب: «كيف؟»

لم تُخْفِ عنه قط ما كانت تفكر به، لذلك كان بإمكانه أن يعرفها حقّ المعرفة؛ مع ذلك كان يراها بالضبط كما يراها الجميع: **امرأة تعاني، منفية من بلدها**. وهو نفسه ينحدر من مدينة سويدية يمقتها من كل قلبه ويأبى العودة إليها. لكن هذا طبيعي في حالته. لأن الجميع يرحبون به **كإسكندنافي جذاب، كمواطن عالمي نسي أين وُلِدَ**. كلاهما صُنِّفَ ووُسِمَ

وسَيُحْكَمُ عليهما بحسب الوفاء لدمغتهما (لكن بالتأكيد، هذا ولا شيء آخر غيره هو ما يُدعى بتفخيم: وفاء المرء لنفسه)

«ما هي مدينتكِ إذن؟

- باريس! فيها تعرفت عليك، وفيها أعيش معك»

وكما لو أنه لم يسمعها، داعب يدها: «اقبلي ذلك كهدية. لا يمكنك الذهاب إليها. سأُفيدكِ كصلة وصل مع بلدكِ المفقود. سيسعدني ذلك».

لم تكن تشك بطيبته؛ فشكَرَته؛ مع ذلك أضافت بنبرة رصينة: «لكن أرجوك أن تفهم أنني لست بحاجة لتفيدني كصلة وصل مع أي شيء. أنا سعيدة معك، منقطعة عن كل شيء وعن الجميع».

هو أيضاً أصبح جدياً: «أفهمك. ولا تخافي من رغبتي في الاهتمام بحياتك الماضية. فالشخص الوحيد الذي سأراه من بين الناس الذين عَرَفْتِهِم هي أمك»

ماذا كان بوسعها أن تقول له؟ أنَّ أمها بالتحديد هي من لا تريده أن يتردد عليها؟ كيف تقول له ذلك، هو من يتذكر بحب فائق أمه الميتة؟

«أنا معجب بأمك. يا لحيويتها!»

لم تشكّ إيرينا بذلك. فالجميع يعجبون بأمها لحيويتها. كيف تشرح إيرينا لغوستاف أنها في الدائرة السحرية للقوة الأمومية لم تفلح قط في التحكم بحياتها الخاصة؟ كيف تشرح له أن القرب المستمر من أمها سيجعلها تتقهقر إلى الخلف،

إلى نقاط ضعفها، وإلى مرحلة عدم النضج؟ آه، يا لها من فكرة مجنونة خطرت ببال غوستاف، أن يتواصل مع براغ!

في المنزل وحسب، عندما أصبحت وحيدة، هَدَأَتْ وسَكَّنَتْ من روعها: «الحاجز الأمني بين البلدان الشيوعية والغرب، والحمد لله، صلبٌ بما يكفي. لا داعي للتخوف من أن اتصالات غوستاف ببراغ قد تتهددني»

ماذا؟ ماذا قالت في سرّها للتو؟ «الحاجز الأمني، والحمد لله، صلب بما يكفي»؟ أحقاً قالت في سرها «الحمد لله»؟ هل قالت في سرها، هي المهاجرة التي يشفق عليها الجميع لأنها فقدت وطنها، «الحمد لله»؟

7

تَعَرَّفَ غوستاف على مارتن مصادفة، خلال مفاوضة تجارية. وتَعَرَّفَ على إيرينا بعد ذلك بكثير، بعد أن ترمَّلت بفترة وجيزة. أُعْجِبَ كل واحد منهما بالآخر، لكنهما كانا خجلين. عندئذٍ هَبَّ الزوج من العالم الآخر لمساعدتهما مقدِّماً نفسه كموضوع سهل للحديث. حين عَرَفَ غوستاف من إيرينا أن مارتن وُلِدَ في العام ذاته الذي وُلِدَ هو فيه، أدرك أن الجدار الذي يفصله عن هذه المرأة الأصغر منه سناً بكثير انهار وشعر بامتنان لطيف حيال المتوفى الذي شجَّعه عمره على مغازلة أرملته الجميلة.

كان يُجِلُّ أمه الميتة، ويتسامح (دون سرور) مع ابنتيه الراشدتين، ويهرب من زوجته. تمنى أن يطلقها لو أمكن ذلك بالتراضي. وبما أن هذا مستحيل، بذل ما بوسعه ليبقى بعيداً عن السويد. كان لدى إيرينا، مثله، ابنتان توشكان أن تعيشا حياة مستقلة أيضاً. اشترى غوستاف للابنة البكر شقة صغيرة، ووجد للصغرى مدرسة داخلية في إنكلترا، بحيث صارت إيرينا وحيدة وتستطيع استقباله في منزلها.

بهرتها طيبته التي تبدو للجميع كأنها السمة الأساسية، الأكثر إدهاشاً، وتكاد لا تُصَدَّق، في قسماته. كان يَفْتُنُ بها النساء اللاتي يدركن فيما بعد أن هذه الطيبة هي سلاح دفاع أكثر منها سلاح إغراء. فالطفل الذي كان محبوب أمه، لم يكن قادراً على العيش وحيداً دون رعاية النساء. لكنه كان يعاني فضلاً عن ذلك من تطلباتهن وشجاراتهن وبكائهن وحتى من أجسادهن المفرطة في حضورها والمفرطة في بوحها. وكي يستطيع الاحتفاظ بهن والفرار منهن في آن معاً، كان يطلق عليهن قذائف الطيبة. وكان يتقهقر محتمياً خلف سحب الانفجار.

في البداية كانت إيرينا محتارة بإزاء طيبته: لماذا كان في غاية اللطف والكرم وبلا مطالب؟ كيف يمكنها أن تردّ له ذلك؟ لم تجد مكافأة غير أن تعرض أمامه رغبتها. كانت تحدق فيه بعينيها الواسعتين اللتين تطالبانه بشيء ما عظيم ومُسْكِر لا اسم له.

رغبتها؛ القصة الحزينة لرغبتها. لم تعرف أي متعة للحب قبل أن تقابل مارتن. ثم أنجبت وانتقلت من براغ إلى باريس وهي حامل مرة ثانية وبعدها بفترة وجيزة مات مارتن. عاشت بعد ذلك سنوات طويلة مرهقة، اضطرت أن تقبل أي عمل، خادمة مياومة، مُسَاعِدَة للعناية بثري كسيح وحققت نجاحها الكبير عندما استطاعت الترجمة من الروسية إلى الفرنسية. (من حسن حظها أنها ثابرت على دراسة اللغات في براغ). مرت السنوات وصارت النساء تتعرى في الإعلانات ولوحات الدعاية وعلى أغلفة المجلات في الأكشاك. وأصبح الشباب يتبادلون القبل، والرجال يتفاخرون بالظهور بسراويلهم الداخلية بينما كان جسدها وسط هذه العربدة الكلية الحضور يتسكع في الشوارع مهملاً، وغير مرئي.

لذلك كان لقاؤها بغوستاف عيداً. فبعد زمن طويل أصبح جسدها ووجهها مرئيين ومُقَدَّرَين، وبفضل سحرهما دعاها رجلٌ لتشاطره حياته. وسط هذا السحر فاجأتها أمها في باريس. لكن ربما في هذه الفترة بالذات، أو بعدها بفترة وجيزة، بدأت تشك على نحو مبهم أن جسدها لم يفرّ تماماً من القدر الذي كُتِبَ عليه ظاهرياً مرة وإلى الأبد. فهو، من كان يهرب من زوجته ونسائه، لم يبحث بقربها عن مغامرة وشباب متجدِّد وحرية الحواس، إنما عن الراحة. دعونا لا نبالغ، جسدها لم يبقَ دون لمس، لكن ازداد الشك في داخلها بأنه لُمِسَ أقل مما يستحق.

8

انطفأت الشيوعية في أوروبا بعد مئتي عام بالضبط من اندلاع الثورة الفرنسية. بالنسبة إلى سيلفي، صديقة إيرينا الباريسية، ثمة مصادفة مليئة بالمعنى. لكن أي معنى في الحقيقة؟ أي اسم سيُطلق على قوس النصر الذي يربط هذين التاريخين العظيمين؟ أهو **قوس أعظم ثورتين أوروبيتين؟ أم قوس اقتران أعظم ثورة بالتجديد النهائي؟** ولتجنب النزاعات الإيديولوجية، أقترحُ استخدام تفسير أكثر تواضعاً: التاريخ الأول أنجب شخصية أوروبية عظيمة، المهاجر (الخائن الكبير أو المتألم الكبير، حسبما تشاؤون)؛ أمّا الثاني فأخرج المهاجر من مسرح التاريخ الأوروبي؛ وبذلك أنجز سينمائي اللاوعي الجمعي العظيم أحد أكثر أفلامه أصالة، فيلم **أحلام الهجرة**: آنذاك حدثت، لبضعة أيام، أول عودة لإيرينا إلى براغ.

عندما غادرت كان الطقس بارداً جداً وبعد ذلك بثلاثة أيام، فجأة، وعلى نحو مباغت، وقبل الأوان، حلّ الصيف. فأصبح لباسها السميك غير ملائم للاستخدام. وبما أنها لم تُحْضِر معها أية ملابس خفيفة، ذهبت لتشتري فستاناً من أحد المتاجر. لم يكن البلد مُغْرَقاً بعد بالبضائع الغربية، وعثرت من جديد على القماش ذاته والألوان ذاتها والتفصيلات ذاتها التي عرفتها في المرحلة الشيوعية. جربت فستانين أو ثلاثة وتضايقت. كان من العسير عليها أن تقول السبب: لم تكن

بشعة ولم تكن تفصيلتها سيئة، لكنها تُذَكِّرها بماضيها البعيد، بصرامة اللباس في شبابها، وبدت لها ساذجة وريفية وغير أنيقة وملائمة لمعلمة ريفية: لكنها كانت مستعجلة. لماذا في نهاية المطاف لا تشبه معلمة ريفية لبضعة أيام؟ اشترت الفستان بسعر مثير للسخرية، ارتدته وخرجت، حاملة لباسها الشتوي في كيس، إلى الشارع المرتفع الحرارة.

ثم، في أثناء مرورها بمتجر كبير، ألْفت نفسها أمام جدار مغطى بمرآة فسيحة؛ فتسمرت مذهولة: تلك التي رأتها، لم تكن هي، إنما امرأة أخرى، أو عندما تمعَّنت طويلاً في فستانها الجديد، كانت هي لكنها تعيش حياة أخرى، حياة كانت ستعيشها لو بقيت في بلدها. لم تكن تلك المرأة مُنَفِّرَة، إنما مؤثرة، مؤثرة أكثر مما ينبغي، مؤثرة إلى حدّ البكاء، مثيرة للشفقة، مسكينة، ضعيفة، مغلوب على أمرها.

استولى عليها الذعر ذاته الذي كان يستولي عليها في أحلام هجرتها: بسبب القوة السحرية لفستان، ألفت نفسها سجينة في حياة لم تُرِدْها ولم تعد قادرة على الخروج منها. كما لو أنها حظيت، قديماً، في بداية حياة الرشد، بعدة حيوات ممكنة انتهت إلى الاختيار من بينها تلك التي قادتها إلى فرنسا. وكما لو أن تلك الحيوات الأخرى، المرفوضة والمتروكة، بقيت دوماً مستعدة لها وتترصدها بغيرة من مخابئها. إحداها استولت الآن على إيرينا وحشرتها في فستانها الجديد، كما لو أنه قميص مجانين.

هرعت خائفة إلى بيت غوستاف (كان لديه مسكن مؤقت في وسط المدينة) وبدلت ملابسها من جديد، وهي بلباسها الشتوي، نظرت من النافذة. كانت السماء متلبدة والأشجار تنحني مع الريح. كان الطقس حاراً لساعات فقط. ساعات من الحر لكي تُمَثِّل عليها كابوساً، لكي تُحَدِّثَها عن رعب العودة.

هل كان حلماً؟ حلم الهجرة الأخير؟ لكن لا، كان كل هذا حقيقياً. مع ذلك، راودها انطباع بأن الأفخاخ التي حَدَّثَتْها عنها تلك الأحلام قديماً لم تختفِ، وأنها دوماً موجودة، دوماً جاهزة، تترصد عبورها.

9

خلال عشرين عاماً من غيابه، احتفظ الإيثاكيون بذكريات كثيرة عن عوليس، لكنهم لم يشعروا بأي حنين إليه. بينما كان عوليس يكابد الحنين ولا يتذكر شيئاً تقريباً.

يمكننا أن نفهم هذا التناقض الغريب إذا أدركنا أن الذاكرة لكي تشتغل جيداً، تحتاج إلى تمرين متواصل: إذا لم تَسْتَحْضِر الذكريات، مرة تلو الأخرى، في الأحاديث بين الأصدقاء، فإنها تتبدد.

المهاجرون المتجمعون في جاليات من مواطنيهم يروون فيما بينهم حتى الغثيان القصص ذاتها التي تصبح، على هذا

النحو، لا تنسى. أمّا أولئك الذين لا يترددون على مواطنيهم، مثل إيرينا أو عوليس، يُصَابون حتماً بفقدان الذاكرة. كلما اشتد حنينهم، كلما فَرِغَ أكثر من الذكريات. كلما ذاب عوليس أكثر، نسي أكثر. لأن الحنين لا يقوي نشاط الذاكرة ولا يوقظ الذكريات، يكتفي بذاته، بعاطفته الخاصة، مستغرقاً تماماً في معاناته الخاصة.

بعد أن قتل المتهورين الذين أرادوا الزواج من بنلوب وسيطر على إيثاكا، اضطر عوليس للعيش مع أناس لا يعرف عنهم شيئاً. أولئك، لكي يتملقونه، راحوا يثرثرون له بكل ما يتذكرونه عنه قبل ذهابه إلى الحرب. وهم مقتنعون أنه لا يهتم لشيء إلا لإيثاكا (وكيف يسعهم الاعتقاد بغير ذلك ما دام أنه جاب البحار الفسيحة ليعود إليها)، راحوا يُعيدون على مسامعه ما حدث في غيابه، متلهفين للإجابة عن كل أسئلته. لم يكن يضجره شيء أكثر من هذا. لم يكن ينتظر إلا أمراً واحداً: أن يقولوا له أخيراً: اروِ! وهذه الكلمة الوحيدة التي لم يقولوها له قط.

طيلة عشرين عاماً لم يفكّر إلا بعودته، لكنه بمجرد عودته، أدرك مندهشاً أن حياته، جوهر حياته ذاتها، مركزها، كنزها، موجود خارج إيثاكا، في سنوات تيهه العشرين. وهذا الكنز، كان قد فَقَدَه ولن يسعه العثور عليه إلا إذا رواه.

بعد أن غادر كاليبسو، وخلال رحلة عودته، غرق في فياثيا حيث استقبله ملكها في بلاطه. هناك، كان غريباً،

مجهولاً غامضاً. والمجهول يُسْأل: «من أنت؟ من أين أتيت؟ اروِ!» وروى. في أربعة أناشيد طويلة من **الأوديسة** حكى بالتفصيل مغامراته أمام الفياثيين المذهولين. أما في إيثاكا فلم يكن غريباً، كان واحداً منهم ولهذا لم يخطر ببال أحد أن يقول له: «اروِ!».

10

تصفحت أوراقَ مفكراتِ مواعيدها القديمة، متوقفة طويلاً أمام أسماء نصف منسية؛ ثم حجزت صالة في مطعم. على طاولة مسندة إلى جدار وبجانب الحلوى، اثنتا عشرة زجاجة نبيذ مصفوفة تنتظر. في بوهيميا لا يشرب الناس نبيذاً جيداً وغير معتادين على الاحتفاظ بالمعتَّق منه. اشترت نبيذ بوردو المعتقَ بسرور فائق: لتفاجئ مدعواتها، لتحتفي بهن، لتستعيد صداقتهن.

كادت تفسد كل شيء. وهن منزعجات، راحت صديقاتها يراقبن الزجاجات حتى أعلنت إحداهن، وهي مفعمة بالثقة والوفاء لبساطتها، عن تفضيلها للبيرة. وافقت الأخريات اللاتي تحمسن لهذه الصراحة، واستدعى الولع بالبيرة النادل.

أخذت إيرينا تلوم نفسها لأنها ارتكبت خطأً بشرائها صندوق نبيذ البوردو؛ لأنها وضعت بحماقة تحت الضوء كل ما يفصلها عنهن: غيابها الطويل عن البلد، عاداتها كأجنبية،

وطلاقتها. أخذت تلوم نفسها في الأخص لأنها منحت أهمية فائقة لهذا اللقاء: أرادت في نهاية المطاف أن تعرف إن كان بوسعها أن تعيش هنا وتشعر أنها في منزلها، وأن يكون لديها أصدقاء. لهذا السبب لم ترغب أن تُزعج نفسها بهذه النذالة الصغيرة؛ وحتى كانت مستعدة أن ترى فيها مصارحة لطيفة؛ من جهة أخرى، ألم تكن البيرة التي أظهرت مدعواتها وفاءهن لها هي مشروب الصراحة المقدس؟ ألم يكن مشروب المحبة الذي يبدد كل رياء، وكل هزل اللباقات المستحسنة؟ أليست هي التي لا تحثّ محبيها إلا على التبول بكل سذاجة وعلى السمنة بكل براءة؟ في الواقع، كانت النساء حولها بدينات بحرارة، ولا يتوقفن عن الكلام، يزخرن بالآراء السديدة ويمتدحن غوستاف الذي يعرفن جميعهن بوجوده.

في هذه الأثناء، يظهر النادل في الباب مع عشرة أكواب بيرة ذات النصف ليتر، خمسة في كل يد، كأنه منتصر رياضي عظيم يبعث على التصفيق والضحك. يرفعن أكوابهن ويشربن النخب: «في صحة إيرينا! وفي صحة الابنة المستعادة!»

تشرب إيرينا جرعة متواضعة من البيرة، وهي تقول في سرها: ماذا لو أن غوستاف هو من قدم لهن النبيذ؟ هل كن سيرفضنه؟ بالتأكيد لا. برفضهن النبيذ رفضنها هي. هي، كما عادت بعد سنوات طويلة.

وهنا بالضبط يكمن رهانها، أن يقبلنها كما عادت. غادرت من هنا وهي فتاة ساذجة، وعادت امرأة ناضجة،

حاملة وراءها حياةً، حياةً صعبة تعتز بها. وتريد أن تفعل ما بوسعها كي يقبلنها بتجربتها في العشرين عاماً المنصرمة، وبقناعاتها وأفكارها؛ سيكون الرهان إمّا أن تربح كل شيء أو تخسر كل شيء: إما أن تفلح في العيش معهن كما هي حالها الآن، أو أنها لن تبقى هنا. نظمت هذا اللقاء كنقطة انطلاق لهجومها. ليشربن البيرة ما دمن مصرات عليها، هذا لا يزعجها، وما يهمها هو أن تختار هي نفسها موضوع الحديث وأن تجعلهن يصغين.

لكن الوقت يمضي، والنساء يتكلمن في آنٍ معاً، ويكاد يستحيل الشروع في أي حديث، وبدرجة أقل أيضاً فرضُ مضمونه. تحاول بلطف أن تستأنف الموضوعات التي يقدمنها وأن تُحَوِّلَ اتجاهها نحو ما كانت تريد أن تقوله لهن، لكنها تخفق: ما إن تبتعد أحاديثها عن اهتماماتهن، حتى لا تعود أي منهن تصغي لها.

جلب النادل للتو الدفعة الثانية من البيرة؛ على الطاولة لم يزل كوبها الأول كأنه، بِرَغْوَتِه المتلاشية، مسربلٌ بالعار بإزاء الرغوة الطافحة من الكوب الجديد. تلوم إيرينا نفسها لأنها لم تعد تحب البيرة؛ تعلمت في فرنسا أن تتذوق المشروبات برشفات صغيرة وفقدت عادة تجرُّع كميات وافرة من السائل كما يتطلب ذلك الشغف بالبيرة. ترفع الكوب إلى فمها وتُرغم نفسها على شرب جرعتين، ثلاث جرعات دفعة واحدة. في هذه اللحظة، تضع امرأة، هي الأكبر سناً بينهن، في الستينيات

تقريباً، يدها بحنان على شفتيها لتمسح الرغوة التي بقيت عليهما.

قالت لها: «لا تجهدي نفسك. ما رأيك لو نأخذ النبيذ سوية؟ سيكون من الحماقة أن نُفَوِّتَ نبيذاً بهذه الجودة»، وخاطبت النادل ليفتح إحدى الزجاجات التي بقيت كاملة على الطاولة الطويلة.

11

كانت ميلادا زميلة مارتن التي تعمل معه في المؤسسة ذاتها. عَرَفَتْها إيرينا بمجرد أن ظهرت على باب الصالة، لكن الآن فقط، وقد أصبح بيد كل واحدة منهما كأس نبيذ، يمكنها التحدث معها، تنظر إليها: لم يزل وجهها يحتفظ بالشكل ذاته (مدور) والشعر البني ذاته، والتسريحة ذاتها (هي المدورة أيضاً، التي تغطي أذنيها نازلة إلى أسفل ذقنها). تعطي انطباعاً بأنها لم تتغير؛ فقط حين تبدأ بالكلام، يتبدل وجهها فجأة: تتجعد بشرتها وتتغضن، شفتها العليا تزدحم بتشققات عمودية دقيقة، بينما التجاعيد على وجنتيها وذقنها تُبَدِّلُ مكانها بسرعة مع كل إيماءة. تقول إيرينا في سرها إن ميلادا لا تنتبه إلى ذلك: فلا أحد يُحَدِّثُ نفسه أمام المرآة؛ لذلك لا تعرف وجهها إلا ساكناً، ببشرة ملساء تقريباً؛ وجميع مرايا العالم تجعلها مقتنعة أنها لم تزل جميلة.

وهي تتذوق النبيذ، تقول ميلادا (وعلى وجهها الجميل، تظهر مباشرة التجاعيد وتبدأ بالتراقص): «العودة ليست سهلة، أليس كذلك؟

- لا يسعهن أن يفهمن أننا غادرنا دون أن نحتفظ بأي أمل بالعودة. أجهدنا أنفسنا للاستقرار هناك حيث كنا. هل تعرفين سكاسل؟

- الشاعر؟

- في رباعية له، يتحدث عن حزنه؛ يقول إنه يريد أن يبني منه منزلاً وينزوي فيه ثلاثمئة عام. ثلاثمئة عام. نحن جميعاً شاهدنا أمامنا نفقاً طويلاً من ثلاثمئة عام.

- طبعاً، ونحن هنا أيضاً.

- إذاً لماذا لم يعُد أحد يريد أن يعرف ذلك؟

- لأن الناس تُصَحح المشاعر إذا المشاعر أخطأت. إذا التاريخ شجبها.

- فضلاً عن ذلك: كل الناس يعتقدون أننا رحلنا لنعيش حياة سهلة. لا يعرفون كم من الصعب أن يؤمِّن المرء لنفسه مكاناً صغيراً في عالم غريب. لاحظي، تغادرين البلد ومعك طفلة وتحملين أخرى في بطنك. ثم تفقدين زوجك، وتربين ابنتيك في البؤس...»

- تسكت فتقول ميلادا: «ليس هناك أي معنى لأن تقصّي عليهن كل هذا. حتى وقت قريب كانت الناس تتنافس، وكل واحد يريد أن يبرهن أنه عانى أكثر من الآخر في ظلّ النظام

السابق. كأن كل الناس يريدون أن يُعْتَرَفَ بهم ضحايا، لكن منافسات المعاناة هذه انتهت. اليوم يتباهون بالنجاح. وإذا أظهروا استعداداً لاحترامك، فذلك ليس لأن حياتك صعبة، إنما لأنهم يرونك بجانب رجل ثري!»

كانتا تتحدثان منذ برهة طويلة في زاوية القاعة عندما اقتربت الأخريات وأحطن بهما. وكما لو أنهن يلمن أنفسهن على عدم الاهتمام كفاية بمضيفتهن، أصبحن ثرثارات (نشوة البيرة تبعث على الصخب وصفاء النية أكثر من نشوة النبيذ) وودودات. المرأة التي طالبت في بداية اجتماعهن بالبيرة تهتف متعجبة: «يجب رغم كل شيء أن أتذوق نبيذك!» وتنادي النادل الذي يفتح زجاجة أخرى ويملأ الكؤوس.

تقع إيرينا تحت تأثير رؤيا مفاجئة: مجموعة من النساء، يحملن أكواب بيرة بأيديهن ويضحكن صاخبات، يهرعن نحوها فَتُمَيِّزُ كلمات تشيكية وتُدْرِك مذعورة أنها ليست في فرنسا، وإنما في براغ، وأنها ضائعة. آه أجل، إنه أحد أحلامها القديمة عن الهجرة الذي سرعان ما تطرد ذكراه: فهؤلاء النسوة من حولها لم يعدن يشربن البيرة، ويرفعن أقداح نبيذ ويشربن مرة أخرى أيضاً نخب الفتاة العائدة؛ ثم تقول إحداهن لها وهي مشرقة: «هل تتذكرين؟ كتبتُ لك أنّ الأوان حان، حان الأوان كي تعودي!»

مَن هي هذه المرأة؟ طول السهرة لم تكفّ عن الحديث عن مرض زوجها، متوقفة ومُسْتَثَارَة عند جميع التفاصيل.

تعرفت إليها إيرينا في النهاية: إنها رفيقتها في الثانوية التي كتبت لها في الأسبوع الذي سقطت فيه الشيوعية: «أوه يا عزيزتي، لقد هرِمنا! حان الأوان كي تعودي!» تُرَدِّد مرة أخرى أيضاً هذه الجملة وعلى وجهها البدين ابتسامة عريضة تكشف عن أسنانها الاصطناعية.

تلاحقها بقية النساء بالأسئلة: «إيرينا، هل تتذكرين حين. . .» و: «هل تعرفين ما حدث آنذاك مع. . .؟». «لكن لا، رغم كل شيء، لا بد أنك تتذكرينه!». «ذلك الرجل صاحب الأذنين الكبيرتين، لطالما سَخِرْت منه!». «لكن لا يمكن أن تنسيه! لا يتكلم إلا عنك!»

حتى تلك اللحظة لم يبدين اهتماماً بما كانت تحاول أن ترويه لهن. ماذا يعني هذا الهجوم المفاجئ؟ ماذا يردن أن يعرفن هؤلاء النسوة اللاتي لم يرغبن بسماع أي شيء؟ وسرعان ما تدرك أن أسئلتهن خاصة: أسئلة ليتحققن بها إن كانت تعرف ما يعرفنه، إن كانت تتذكر ما يتذكرنه. هذا يُوَلِّد لديها انطباعاً غريباً لن يغادرها بعد.

في البداية، بإهمالهن التام لما عاشته في الغربة، بترن عشرين عاماً من حياتها. الآن وبهذا الاستجواب يحاولن أن يجمعن ماضيها وحياتها الحالية. كأنهن يبترن ساعدها ويثبتن يدها بالمرفق مباشرة؛ كأنهن يبترن ربلتي ساقيها ويلصقن قدميها بركبتيها.

مذهولة بهذه الصورة، لم تستطع الإجابة عن أي من

أسئلتهن؛ من جهة أخرى، لم تنتظر النساء منها حتى ذلك وعُدْن، مع تصاعد نشوة الشراب، إلى ثرثرتهن التي أُبْعِدَتْ إيرينا عنها. ترى أفواههن التي تنفتح في آن معاً، أفواهاً تتحرك، ترسل كلمات وتنفجر بلا انقطاع بالضحك (لغز: كيف يمكن لنساء لا يصغين لبعضهن أن يضحكن لما يقلنه؟). لم تعد أي منهن تخاطب إيرينا لكنهن جميعاً يُشْرقن بالبشاشة، أخذت المرأة التي طلبت البيرة في البداية تغني، والأخريات حذون حذوها وحتى في الطريق، بعد أن انتهت السهرة، تابعن الغناء.

في السرير، تُرَاجِع سهرتها؛ مرة أخرى أيضاً يعود إليها حلم الهجرة القديم وترى نفسها محاطة بنساء، صاخبات ومنتعشات، يرفعن أكواب البيرة. في الحلم، كنَّ في خدمة الشرطة السرية ومعهن أمرٌ للإيقاع بها، لكن بخدمة من كانت النساء اليوم؟ «حان الأوان كي تعودي»، قالت لها زميلة دراستها القديمة ذات الأسنان الاصطناعية المرعبة. كانت مندوبة المقابر (مقابر وطنها) مُكَلَّفَة بإعادتها إلى النظام: تُحَذرها أن الزمن يحاصرها وأنه لا بد للحياة أن تنتهي هناك حيث بدأت.

ثم تفكر بميلادا التي أبدت وداً أمومياً فائقاً؛ وأَفْهَمَتْها أن أحداً لم يعد يهتم بأوديستها، وتقول إيرينا في سرها إن ميلادا لم تهتم بها أيضاً. لكن كيف تلومها على ذلك؟ لماذا سيترتب عليها أن تهتم بمن ليس لها أية علاقة بحياتها؟ لو فعلت، لما

كان ذلك سوى مجاملة هزلية وإيرينا سعيدة لأن ميلادا كانت في منتهى اللطف، دون أي هزل.

فكرتها الأخيرة قبل النوم كانت حيال سيلفي. مضى زمن طويل لم ترها فيه! تفتقدها! تود إيرينا أن تدعوها إلى حانة وتروي لها عن أسفارها الأخيرة في بوهيميا. وتُفْهِمها مدى صعوبة العودة. من جهة أخرى تتخيل أنها تقول لها ألستِ أنتِ أول من تفوّه بهذا الكلمات: العودة العظيمة. وكما تعرفين يا سيلفي، اليوم فَهِمْت: سيسعني أن أعيش معهم من جديد، لكن بشرط أن أضع باحتفالية كل ما عشته معكِ ومعكم ومع الفرنسيين على مذبح الوطن وأضرم النار فيه. عشرون عاماً من حياتي المنصرمة في الغربة ستستحيل إلى دخان خلال حفلة مقدسة. وستغني النساء ويرقصن معي حول النار رافعات أكواب البيرة بأيديهن. هذا هو الثمن الذي يجب أن أدفعه ليُغْفَرَ لي. كي أصبح مقبولة. كي أصبح من جديد واحدة منهن.

12

ذات يوم، في مطار باريس، اجتازت حاجز تفتيش الشرطة وذهبت لتجلس في قاعة الانتظار. على المقعد المقابل لها، رأت رجلاً، وبعد ثانيتين من عدم اليقين والدهشة، عرفته. وهي مضطربة، انتظرت اللحظة التي تتقاطع فيها

نظراتهما وابتسمت. هو أيضاً ابتسم وأحنى رأسه بخفّة: نهضت وتوجَّهت نحوه فنهض بدوره.

«تعارفنا في براغ، أليس كذلك؟» قالت له بالتشيكية. «أما زلتَ تتذكرني؟

- بالتأكيد

- عَرَفْتُكَ في الحال. لم تتغير.

- أنتِ تبالغين

- لا، لا أنتَ ما زلتَ كما في السابق. يا إلهي، كل هذا أصبح بعيداً جداً»، ثم ضاحكة: «أنا ممتنة لكَ لأنكَ عرفتني!» وبعد ذلك: «هل بقيتَ كل هذا الوقت في البلد؟

- لا

- هل هاجَرْتَ؟

- نعم

- وأين عشتَ؟ في فرنسا؟

- لا».

تَنَهَّدَتْ: «آه، لو أنك عشتَ في فرنسا ولم نلتقِ إلا اليوم...

- أنا أمر بباريس بمحض الصدفة. أعيش في الدنمارك. وأنتِ؟

- هنا. في باريس. يا إلهي. لا أستطيع أن أصدق عينيّ. كيف اسْتَطَعْتَ العيش كل هذا الوقت؟ هل استطعتَ مزاولة مهنتك؟

- أجل. وأنتِ؟

- اضطرِرْتُ لمزاولة سبع مهن تقريباً.

- لن أسألكِ عن عدد الرجال الذين حظيتِ بهم.

- لا، لا تسألني. وأنا أعدكَ ألا أطرحَ عليكَ أيضاً هذا النوع من الأسئلة.

- والآن؟ هل عُدْتِ؟

- ليس تماماً. ما زال لدي شقتي في باريس. وأنتَ؟

- أنا أيضاً.

- لكنك تعودُ إليها دائماً.

- قال: لا. إنها المرة الأولى.

- آه، متأخراً جداً! لا تبدو مستعجلاً!

- لا.

- أليس لديكَ التزامات في بوهيميا؟

- أنا رجل حر تماماً».

قال هذا بهدوء وبشيء من الكآبة لم تُفْلِتْ منها.

في الطائرة، كان مكانها في الأمام قرب الممر والتفتت مرات عديدة لتنظر إليه. لم تنسَ قط لقاءهما البعيد. حدث ذلك في براغ، كانت مع مجموعة أصدقاء في حانة وهو، صديق أصدقائها، نَذَرَ عينيه لها. انقطعت قصة حبهما قبل أن تبدأ. احتفظتْ منها بالحسرة وبجرحٍ لم يندمل قط.

ذهب مرتين ليستند إلى مقعدها ويتابع حديثهما. علمت

أنه لن يكون في بوهيميا إلا لثلاثة أيام أو أربعة، وفوق ذلك، سيكون في مدينة ريفية ليرى أسرته. اغتمَّت لذلك. ألن يكون ليوم واحد في براغ؟ بلى، ربما سيمضي يوماً أو يومين رغم كل شيء قبل العودة إلى الدنمارك. هل سيسعها رؤيته؟ سيكون لطيفاً للغاية أن يلتقيا! أعطاها اسم الفندق الذي سينزل به في الريف.

13

هو أيضاً، كان سعيداً بهذا اللقاء؛ كانت ودية ومغناج وممتعة، وجميلة في الأربعين من عمرها، لم يكن يعرف البتة من تكون. من المزعج أن تقول لشخص أنك لم تتذكره، لكن في هذه المرة كان الإزعاج مضاعفاً، لأنه ربما لم ينسها، بل لم يتعرَّف إليها بعد. والاعتراف بذلك لامرأة هو نذالة لم يكن قادراً على ارتكابها. فضلاً عن ذلك، سرعان ما أدركَ أن المجهولة لن تتحقق إن كان تذكرها أم لا وأنه لا شيء أسهل من الحديث معها. لكنهما حين عزما أن يلتقيا وحين أرادت أن تعطيه رقم هاتفها، شعر بالارتباك: كيف سيسعه الاتصال بشخص لا يعرف اسمه؟ ودون أي تفسير، قال لها إنه يفضل أن تتصل هي به وطلب منها أن تسجل رقم فندقه الريفي.

في مطار براغ افترقا. استأجر سيارة وأخذ الطريق السريع، ثم طريقاً فرعياً. حين وصل إلى المدينة، بحث عن

المقبرة. عبثاً. ألفى نفسه في حي جديد ذي منازل مرتفعة وموحدة حَيَّرَتْه. شاهد طفلاً في العاشرة من عمره تقريباً، أوقف السيارة وسأل عن طريقة الوصول إلى المقبرة. نظر الفتى إليه دون أن يجيب. معتقداً أنه لم يفهم عليه، هجأ جوزيف سؤاله ببطء وبصوت أعلى، كأجنبي يرغم نفسه أن يتلفظ جيداً ما يقوله. وانتهى الطفل إلى إجابته بأنه لا يعرف. كيف يمكن لهذا العفريت ألا يعرف مكان المقبرة الوحيدة في المدينة؟ انطلق بسيارته وسأل أيضاً مارة آخرين، لكن توضيحاتهم بدت له غير مفهومة. وجدها أخيراً: محصورة خلف قنطرة بُنِيتْ حديثاً، كانت تبدو متواضعة وأصغر بكثير مما مضى.

ركن السيارة وتوجه، عبر ممر من الزيزفون، إلى القبر. هناك رأى منذ نحو ثلاثين عاماً نعشاً يحتوي جسد أمه ينزل فيه. قبل مغادرته إلى الغربة، تردد مراراً إليه، في كل زيارة إلى مدينته الأم. وحين كان يُحَضِّر لهذه الإقامة في بوهيميا منذ شهر، عرف أنه سيبدأ من هناك. نظر إلى الشاهدة؛ كان الرخام مغطى بأسماء كثيرة: ظاهرياً، كان القبر قد أصبح مع الزمن مهجعاً كبيراً. بين الممر والشاهدة، لم يكن يوجد إلا أرض معشبة، وبطبيعة الحال، مع مسكبة أزهار؛ حاول أن يتخيل النعوش في الأسفل: لا بد أن كل ثلاثة منها صُفَّتْ بجانب بعضها بعضاً، ووُضِعَتْ في طوابق عديدة. كانت الأم في الأسفل. أين كان مكان الأب؟ بما أنه مات بعد خمسة

عشر عاماً، كان مفصولاً عنها بطابق من التوابيت على الأقل.

رأى من جديد جنازة أمه. في تلك الفترة لم يكن يوجد في الأسفل إلا ميتين: جداه والدا أبيه. بدا له آنذاك طبيعياً جداً أن ترقد أمه عند حمويها، ولم يتساءل حتى إن كانت ستفضِّل أن تلتحق بأبويها. فيما بعد فقط فَهِمَ: إن التجمع في سراديب الدفن الأسرية تَقَرَّرَ سلفاً منذ زمن طويل بواسطة علاقات القوة؛ وكانت أسرة والده أكثر نفوذاً من أسرة أمه.

أربكه عدد الأسماء الجديدة على الشاهدة. بعد بضع سنوات من رحيله عَلِمَ بموت عمه، ثم عمته، وأخيراً أبيه. أخذ يقرأ الأسماء بتأنٍّ، بعضها كان يعود لأشخاص ظلَّ يعتبرهم حتى هذا اليوم أحياء؛ بدا كالمذهول. لم يشوشه موتهم (فمَن يقرِّر أن يغادر بلده إلى الأبد عليه أن يُسَلِّم بأنه لن يرى أسرته ثانية)، إنما واقعة أنه لم يتلقَّ أي إخطار. كانت الشرطة الشيوعية تراقب الرسائل الموجَّهة إلى المهاجرين؛ فهل خافوا أن يكتبوا له؟ نظر إلى التواريخ؛ المدفونان الأخيران كانا بعد عام 1989. إذاً ليس من باب الحذر لم يكتبوا له. كانت الحقيقة أسوأ: لم يعد موجوداً بالنسبة إليهم.

14

يعود الفندق إلى السنوات الأخيرة من الشيوعية: بناءٌ حديث، أملس، شبيهٌ بالفنادق التي كانوا يبنونها في كل مكان

من العالم، يُطِلُّ على الساحة الرئيسة، مرتفعٌ جداً، ويُشرف من العديد من الطوابق على أسطح المدينة. استقر في غرفته في الطابق السادس، ثم توجّه نحو النافذة. كانت الساعة السابعة مساءً، بدأ الغسق يحل، أُضيْئَت المصابيح وساد هدوء لا يُصَدَّق في الساحة.

قبل أن يغادر الدنمارك، تَصَوَّرَ المواجهة مع الأماكن المعروفة، مع حياته الماضية، وتساءل: هل سيتأثر؟ هل سيكون بارداً؟ فرحاً؟ مكتئباً؟ لا شيء من هذا. خلال غيابه، كنست مكنسة غير مرئية مشهد شبابه، مزيلةً كل ما كان أليفاً لديه؛ والمواجهة التي انتظرها لم تحدث.

منذ زمن طويل زارت إيرينا مدينة فرنسية ريفية، بحثاً عن لحظات راحة لزوجها الذي استبد به المرض. كان يوم أحد وكانت المدينة هادئة، فتوقفا على جسر ونظرا إلى الماء يجري بهدوء بين ضفتين خضراوتين. هناك حيث ينعطف النهر، ثمة فيللا قديمة مُحاطة بحديقة بدت لهما كصورة منزل مطمئن، كحلم قصيدة غزلية كاملة. وهما مأخوذان بهذا الجمال، نزلا بواسطة درج إلى حافة النهر، راغبين بالتنزه. بعد خطوات أدركا أن سلام يوم الأحد خدعهما؛ كان الطريق مسدوداً؛ اصطدما بورشة مهملة: آلات، جرارات، أكوام تراب ورمل؛ من الجهة الأخرى للنهر، أشجارٌ مقتلعة؛ والفيللا التي جذبهما جمالها عندما شاهداها من أعلى كَشَفَتْ عن زجاج محطم وثقب كبير مكان الباب؛ وخلفها ينتصب بناء مرتفع مع عشر

طوابق تقريباً؛ جمال المشهد المديني الذي سحرهما لم يكن لهذا السبب وهماً بصرياً؛ كان يبدو وسط خرابه الخاص موطوءً ومهاناً ومثيراً للسخرية. مرة أخرى اتجهت أنظار إيرينا إلى الضفة الأخرى ولاحظت أن الأشجار الضخمة المقتلعة كانت مزهرة! مقتلعة ومرمية وكانت حية! في تلك اللحظة، انفجرت فجأة الموسيقى الصاخبة من مكبِّر الصوت، وبتأثير هذا الحدث الطارئ وضعت إيرينا يديها على أذنيها وانفجرت بالبكاء. بكاء على عالم كان يختفي أمام عينيها. أخذها زوجها الذي سيموت بعد بضعة أشهر من يدها ومضى بها.

المكنسة العملاقة المشوهة التي تُبدل وتُشوه وتَمحي المشاهد تعمل منذ آلاف السنين، لكن حركاتها، البطيئة في الماضي لدرجة لا تكاد تُلحظ، تسارعت إلى حدّ أنني أتساءل: هل ما زالت الأوديسة معقولة اليوم؟ هل ما زالت ملحمة العودة تنتمي إلى عصرنا؟ في الصباح، حين استيقظ على شاطئ إيثاكا، هل كان عوليس سيستطيع أن يستمع بنشوة إلى موسيقى العودة العظيمة لو أن شجرة الزيتون القديمة اقْتُلِعَتْ ولو أنه لم يستطع أن يتعرف على أي شيء حوله؟

قرب الفندق، بناءٌ مرتفعٌ يُبدي جانبه العاري، جدارٌ صامت مزينٌ برسم عملاق. كان الظل يجعل النقش غير واضح ولم يميز جوزيف إلا يدين تتصافحان، يدين ضخمتين، بين السماء والأرض. هل كانتا دوماً هناك؟ لم يعد يتذكر.

كان يتعشى وحيداً في مطعم الفندق ويستمع إلى ضجيج الأحاديث من حوله. كانت موسيقى لغة مجهولة. ماذا حدث مع التشيكي خلال هذين العقدين البائسين؟ هل النبرة هي التي تغيرت؟ ظاهرياً أجل. فما اعْتَمَدَ قديماً بثبات على المقطع الأول، ضَعُفَ الآن؛ والنبرة صارت جوفاء. اللحن يبدو رتيباً أكثر من السابق، ومتثاقلاً. والرنين! أصبح أنفياً، وهذا ما يضفي على الكلام شيئاً من التقزُّز الكريه. على الأرجح، تتحول موسيقى كل اللغات، خلال قرون بطريقة غير محسوسة، لكن من يعود بعد غياب طويل يتشوش منها: كان جوزيف المنحني فوق صحنه يُصغي إلى لغة مجهولة يفهم كل كلمة من كلماتها.

ثم في غرفته، رفع سماعة الهاتف وطلب رقم أخيه. سمع صوتاً فرحاً دعاه للمجيء في الحال.

قال جوزيف: «أَرَدْتُ فقط أن أخبركَ بوصولي. اعذرني اليوم. لا أريد أن تروني على هذه الحال بعد هذه السنوات. أنا مرهق. هل لديك وقت فراغ غداً؟»

لم يكن حتى متأكداً من أن أخاه لم يزل يعمل في المشفى.

«سَأُفَرِّغُ وقتي» كان الجواب.

15

يقرع الجرس ويفتح له الباب أخوه الذي يكبره بخمس سنوات. يتصافحان وينظران إلى بعضهما. إنها نظراتٌ ذات كثافة هائلة ويعرفان حقّ المعرفة المقصود منها: كل منهما يُسجل على الآخر بسرعة وسراً، شعره وتجاعيده وأسنانه؛ وكل واحد يعرف ما يبحث عنه في الوجه المقابل له، وكل واحد يعرف أن الآخر يبحث عن الشيء ذاته في وجهه. يخجلان من ذلك، لأن ما يبحثان عنه هو المسافة المحتملة التي تفصل الآخر عن الموت، أو بطريقة أخرى أكثر فظاظة، يبحث كل منهما في الآخر عن الموت الذي يتبدى. يريدان أن يُنهيا بأقصى سرعة هذا البحث السقيم ويتعجلان أن يجدا جملة تنسيهما هذه الثواني المشؤومة، أو سؤال أو مناجاة، أو إن أمكن (وستكون هدية من السماء) مزحة (لكن لم يحصل شيء من هذا لينقذهما).

«تعال» يقول الأخ أخيراً، ويقود جوزيف إلى القاعة وهو يحتضن كتفيه.

16

قال الأخ حين جلسا: «ننتظرك منذ أن انهار هذا. جميع المهاجرين عادوا، أو على الأقل ظهروا هنا. لا، لا، هذا

ليس عتاباً. أنتَ نفسكَ تعرف ما عليك فعله.

- أنت مخطئ، يضحك جوزيف، لا أعرف.

- هل أتيتَ وحدكَ؟ سأل الأخ

- أجل

- هل تريد الإقامة بشكل دائم؟

- لا أدري.

- بالتأكيد، عليك أن تأخذ رأي زوجتك. أنتَ تزوجْتَ هناك على حدّ علمي.

- أجل

- قال أخوه بعدم ثقة: من دنماركية.

- قال جوزيف: «أجل»، وسكت.

أزعج هذا الصمت الأخ وجوزيف، وليقُل شيئاً، سأل: «هل المنزل لك الآن؟»

قديماً، كانت الشقة جزءاً من منزل للإيجار مؤلف من ثلاثة طوابق يملكها والدهم؛ في الطابق الثاني، كانت تسكن الأسرة (الأب والأم والابنان)، وكانت الطوابق الأخرى مؤجرة. بعد الثورة الشيوعية عام 1948، نُزِعَتْ ملكية المنزل وبقيت الأسرة كمُسْتَأجِرَة.

«أجل» أجاب الأخ وهو متضايق على نحو واضح: «حاولنا الاتصال بك، لكن عبثاً.

- كيف؟ مع أنك تعرف عنواني!»

بعد عام 1989، كل الملكيات التي أمَّمتها الثورة (مصانع، فنادق، منازل للإيجار، حقول، غابات) أعيدت إلى أصحابها القدامى (أو الأصحّ إلى أبنائهم وأحفادهم)؛ وسمِّي هذا الإجراء «الاسترداد»: كان يكفي أن يصرِّح أحدهم أمام القضاء بملكيته، وخلال عام من مطالبته يمكن الاعتراض عليه، وإلا يصبح استرداده قطعياً. هذا التبسيط القضائي سمح بالكثير من الغش، لكنه جَنَّبَ دعاوى الإرث والطعن والاستئناف، ووَلَّدَ على هذا النحو، في زمن قصير جداً، مجتمعاً طبقياً فيه برجوازية ثرية، مغامرة، قادرة على تسيير اقتصاد البلد.

«المحامي هو من اهتم بالأمر»، أجاب الأخ وهو لم يزل متضايقاً. «الآن تأخر الوقت كثيراً. هذه القضايا أُقْفِلَتْ. لكن لا تخف، سنسوي الأمر بيننا ودون محامين».

في هذه اللحظة، دخلت زوجة أخيه. لم يحدث حتى تبادلٌ في النظرات: كانت قد شاخت إلى حدٍّ أنّ كل شيء اتضح بمجرد أن ظهرت في الباب. رغب جوزيف أن يطأطئ رأسه كي لا ينظر إليها إلا خفية ودون أن ينفّرها. استولت عليه الشفقة، فنهض وتوجّه نحوها وعانقها.

جلسا من جديد. نظر إليها جوزيف وهو غير قادر على الخروج من انفعاله؛ لو أنه صادفها في الطريق لما تَعَرَّفَ عليها. إنهما الكائنان الأقرب إلي، قال في سره، أسرتي، هي الوحيدة المتبقية لي، أخي، أخي الوحيد. رَدَّدَ هذه الكلمات كما لو أنه أراد أن يطيل انفعاله قبل أن تتلاشى.

جعلته موجة الحنان هذه يقول له: «انسَ تماماً قصة المنزل. اسمع، لنكن عمليين حقاً، أن أمتلك شيئاً هنا لا يشكل مشكلة بالنسبة لي. مشاكلي ليست هنا»

ردَّد الأخ مرتاحاً: «لا، لا. أحب العدل في كل شيء. من جهة أخرى، لا بد أنّ لزوجتك رأياً في الأمر».

- «لنتحدث في أمر آخر»، قال جوزيف واضعاً يده على يد أخيه وضاغطاً عليها.

17

قاداه عبر الشقة ليشيرا له إلى التغيرات التي حدثت بعد رحيله. في إحدى الغرف شاهد لوحة كانت تخصّه. بعد أن قرَّر مغادرة البلد، اضطرّ للتصرف بسرعة. كان يسكن آنذاك في مدينة ريفية أخرى، ولأنه مجبرٌ على كتمان نيته بالهجرة، لم يكن بوسعه أن يفضح نفسه بتوزيع ممتلكاته على أصدقائه. عشية رحيله وضع المفاتيح في مغلف وأرسلها إلى أخيه. ثم هاتفه من الغربة ورجاه أن يأخذ من الشقة كلّ ما يناسبه قبل أن تصادرها الدولة. فيما بعد، حين استقر في الدنمارك وهو سعيد بأنه بدأ حياة جديدة، لم تراوده أية رغبة في محاولة معرفة ما نجح أخوه في إنقاذه وما فعله به.

نظر مطولاً إلى اللوحة؛ عبارة عن ضاحية عمالية فقيرة مُعَالَجَة بألوان فنتازية جسورة تُذَكِّرُ بالمدرسة الوحشية بداية

القرن العشرين، مثل ديران (Derain). مع ذلك، كانت اللوحة بعيدة عن أن تُعتبر توليفاً؛ ولو أنها عُرِضَت في عام 1905 في صالة أوتومن بباريس مع لوحات أخرى من المدرسة الوحشية، لأدهشَت كل الناس بغرابتها، ولأثار اهتمامهم العطر الغامض لزائرة قادمة من مكان بعيد. في الواقع، كانت اللوحة تعود إلى العام 1955، إلى المرحلة التي كانت فيها العقيدة الاشتراكية في الفن تتطلب الواقعية بصرامة: كان المبدع يفضل أن يرسم كما يرسم الفنانون آنذاك في كل مكان من العالم، أي بأسلوب تجريدي، لكنه كان يرغب في الوقت ذاته أن يعرض لوحاته؛ لذلك اضطر لإيجاد النقطة العجيبة التي تتوافق فيها متطلبات الإيديولوجيين مع رغباته كفنان؛ كانت الأكواخ التي تُصَوِّر حياة العمال هي ضريبة للإيديولوجيين، والألوان غير الواقعية بشكل صارخ هي الهدية التي صنعها لنفسه.

كان جوزيف قد زار محترفه في الستينيات حين كانت العقيدة الرسمية تفقد قوتها، وحين أصبح الرسام حراً تقريباً أن يفعل ما يشاء. فَضَّل جوزيف الصريح إلى حدّ السذاجة، هذه اللوحة القديمة على اللوحات الجديدة، والرسام الذي كان يشعر حيال مرحلته الوحشية العمالية بتعاطف ممزوج بالتسامح، قدَّمها له كهدية دون أسف؛ وحتى أنه تناول الريشة وكتب إلى جانب توقيعه إهداءً باسم جوزيف.

علق الأخ: «عَرَفْتَ هذا الرسام حق المعرفة.

- نعم. أنقذتُ كلبه

- هل ستذهب لرؤيته؟

- لا».

بعد عام 1989 بقليل، تلقى جوزيف في الدنمارك رزمة صور عن اللوحات الجديدة للرسام، أنجزها هذه المرة في جو من الحرية التامة: لم تكن تتميز عن ملايين اللوحات التي كانت تُرْسَم آنذاك على سطح الكوكب؛ وكان بوسع الفنان أن يتباهى بانتصار مزدوج: أصبح حراً تماماً ومشابهاً تماماً لكل العالم.

- سأله أخوه: «هل ما زلتَ تحب هذه اللوحة؟

- أجل، ما زالت جميلة جداً»

أشار الأخ نحو زوجته بإيماءة من رأسه: «كاتي تحبّها كثيراً. كل يوم تتوقف أمامها»، ثم أضاف: «في اليوم التالي لرحيلك، قُلْتَ لي أن أعطيها لأبينا. وضعها فوق طاولة مكتبه في المشفى. كان يعرف مقدار حبّ كاتي لها وقبل موته أوصى لها بها»، وبعد برهة توقف: «لا يمكنك أن تتخيل. عشنا سنوات فظيعة».

وهو ينظر إلى زوجة أخيه، تذكَّر جوزيف أنه لم يحبّها قط. بدا له الآن نفوره القديم منها (كانت قد بادلته إياه) غبياً ومؤسفاً. كانت واقفة، محدقة في اللوحة، ووجهها يعبِّر عن عجز حزين، فقال جوزيف مشفقاً: «أعرف».

أخذ الأخ يروي له قصة الأسرة، الاحتضار المديد

للأب، مرض كاتي، الزواج الفاشل لابنتهما، ثم الدسائس ضده في المشفى، حيث ضَعُفَ موقعه فيها لأن جوزيف هاجر.

التعليق الأخير لم يُلْفَظ بنبرة لوم، لكن جوزيف لم يشك بالضغينة التي لا بد أن أخاه وزوجته تحدّثا بها عنه آنذاك، ناقمين من قلة الأعذار التي كان يمكن لجوزيف أن يتعلل بها ليبرر هجرته التي حكما عليها بالتأكيد أنها غير مسؤولة: فالنظام لم يكن يجعل حياة أهالي المهاجرين سهلة.

18

في قاعة الطعام، كانت المائدة جاهزة للغذاء. أصبح الحديث ذلقاً حين أراد الأخ وزوجته أن يخبراه بكل ما حدث في غيابه. كانت عقود من السنين تحوم فوق الأطباق وفجأة، هاجمته زوجة أخيه: «أنتَ أيضاً عشتَ سنوات تعصّبك، كيف تحدثت عن الكنيسة! نحن جميعاً خفنا منك».

فاجأه التعليق. «خافوا مني؟» شددت زوجة أخيه. نظر إليها: على وجهها الذي، منذ بضع لحظات، بدا له ضائع المعالم، خرجتْ من جديد قسمات الماضي.

القول بأنهم خافوا منه كان في الواقع بلا معنى، وذكرى زوجة أخيه لا يمكن أن تخصّ إلا سنوات الثانوية، عندما كان سنه بين السادسة عشر والتاسعة عشر. من المرجح تماماً أنه

سخر آنذاك من المؤمنين، لكن تلك الأحاديث لا يمكن أن يكون لها علاقة بالإلحاد المقاتل للنظام ولم تكن موجَّهة إلا إلى أسرته التي لم تُفَوِّت قط قداس الأحد وكانت تحثّ بذلك جوزيف على لعب دور المستفز. حصل على البكالوريا عام 1951 بعد ثلاثة أعوام من الثورة، وبتأثير أسلوب الاستفزاز ذاته قرر دراسة الطب البيطري: شفاء المرضى هو خدمة إنسانية، كان هذا هو الفخر الكبير لأسرته (فجده كان طبيباً)، ورغب أن يقول لهم جميعاً إنه يفضل البقر على البشر، لكن أحداً لم يُعْجَب بتمرده أو يستنكره، فالطبيب البيطري كان يُعْتَبَر من الناحية الاجتماعية أدنى مكانة، وفُسِّرَ اختياره على أنه نقص في الطموح، وقبول بأن يشغل الصف الثاني في الأسرة، بعد أخيه.

حاول بارتباك أن يشرح (لهما ولنفسه) سيكولوجياً مراهقته، لكن الكلمات تعثّرت في الخروج من فمه لأن الابتسامة الجامدة لزوجة أخيه، الموجّهة نحوه، كانت تُعَبِّر عن اختلاف دائم مع كل ما يقوله. أدرك أنه ليس بمقدوره شيء حيال ذلك، وأن هذا مثل القانون: فأولئك الذين تتبدى لهم خيبة حياتهم ينطلقون لاصطياد المذنبين. وكان جوزيف مذنباً بشكل مضاعف: بوصفه مراهقاً تحدث بالسوء عن الله، وبوصفه راشداً هاجر. تلاشت رغبته في توضيح أي شيء وحَرَفَ أخوه المحادثة بمهارة دبلوماسية إلى موضوع آخر.

أخوه: طالبٌ في السنة الثانية في كلية الطب البشري،

طُرِدَ من الجامعة عام 1948 بسبب أصوله البرجوازية؛ ولكي لا يفقد الأمل بالعودة فيما بعد إلى دراسته ويصبح جراحاً مثل أبيه، فَعَلَ ما بوسعه ليُظْهِر انخراطه في الشيوعية لدرجة أنه ذات يوم، وبحزن عميق، انتهى إلى الدخول في الحزب وبقي فيه حتى عام 1989. تباعدت طريقا الأخوين: بعد أن أُقْصِي أولاً عن دراسته، وأُرْغِم بعد ذلك على إنكار قناعاته، راود الأخ الأكبر (وسيظل يراوده دوماً) إحساس بأنه ضحية؛ أما في المدرسة البيطرية، الأقل أهمية والأقل مراقبة، لم يكن الأخ الأصغر بحاجة ليُظهر أي وفاء للنظام: كان يبدو بنظر أخيه (وسيبدو دوماً) كمحظوظ صغير يعرف التملص من كل شيء؛ كهارب.

في آب عام 1968، اجتاح الجيش الروسي البلد؛ وخلال أسبوع، كانت شوارع جميع المدن تعوي غضباً. لم يكن البلد قط وطناً إلى هذا الحد، والتشيكيون تشيكاً إلى هذا الحد. وكان جوزيف الثمل من الحقد مستعداً أن يلقي بنفسه في مواجهة الدبابات. ثم اعْتُقِلَ رجال الدولة في البلد، ونُقِلُوا تحت الحراسة إلى موسكو، وأُرْغِمُوا على إبرام اتفاق مستعجل، وعاد التشيكيون، وهم لا يزالون غاضبين، إلى منازلهم. وبعد أربعة عشرة شهراً، في العيد السنوي الثاني والخمسين لثورة أكتوبر الروسية، المفروض على البلد كيوم عطلة، ركب جوزيف سيارته في البلدة التي يوجد مكتبه فيها كي يذهب إلى رؤية أسرته في الطرف الآخر من البلد. عندما

وصل إلى المدينة، أبطأ سرعته؛ دفعه الفضول لرؤية كم من النوافذ زُيِّنَت بالأعلام الحمراء التي لم تكن في عام الهزيمة هذا إلا تصاريح إذعان. كان يوجد منها أكثر ممّا يتوقع: لعلّ أولئك الذين رفعوها تصرفوا ضد قناعاتهم، بدافع الحذر، وبخوف غامض، لكنهم تصرفوا ذلك بشكل إرادي لأن أحداً لم يُرغمهم ولم يهددهم. توقف أمام منزل أسرته. في الطابق الثاني حيث يسكن أخوه، كان ثمة علم ضخم كبير، أحمر اللون على نحو قبيح، يلمع. تأمله جوزيف لدقيقة مديدة دون أن يخرج من السيارة؛ ثم انطلق. خلال رحلة العودة، قرّر أن يغادر البلد. ليس لأنه لن يستطيع العيش فيه. كان سيسعه الاعتناء بالأبقار هنا دون إزعاج، لكنه كان وحيداً، مُطَلَّقَاً، دون أطفال، حراً. قال في سره إنه ليست لديه سوى حياة واحدة وأنه يريد أن يعيشها في مكان آخر.

19

في نهاية الغذاء، وأمام فنجان قهوة، فكَّر جوزيف بلوحته. تساءل في سره عن طريقة ليحملها معه وما إن كانت ستُربكه كثيراً في الطائرة. ألن يكون عملياً أكثر نزع القماش عن الإطار ولفها؟

كان يوشك أن يتكلم عنها عندما قالت له زوجة أخيه: «ستذهب بالتأكيد لرؤية «ن»

- لا أعرف بعد.

- كان صديقك الحميم.

- وما زال صديقي.

- في عام 1948 كان جميع الناس يرتعدون أمامه. المفوض الأحمر! لكنه فعل الكثير لأجلك، أليس كذلك؟ له فضل كبير عليك!»

سارع الأخ لمقاطعة زوجته وناول جوزيف رزمة صغيرة: «هذه ما احتفظ بها أبي كذكرى منك. وجدناها بعد موته».

ظاهرياً، كان يجب على أخيه الذهاب إلى المشفى بسرعة؛ كان لقاؤهما يشارف على النهاية واكتشف جوزيف أن لوحته اختفت من المحادثة. كيف! تتذكر زوجة أخيه صديقه «ن»، لكنها تنسى لوحته؟ مع ذلك، ورغم أنه كان مستعداً للتنازل عن كل ميراثه وحصته في المنزل، إلا أن اللوحة كانت له، له وحده، باسمه المنقوش بجانب اسم الرسام! كيف استطاعا، هي وأخوه، أن يتظاهرا بأنها لا تعود له؟

تَلَبَّدَ الجو فجأة وأخذ الأخ يروي شيئاً طريفاً. لم يكن جوزيف يصغي. كان قد قرَّر المطالبة بلوحته وبينما يركز على ما يريد قوله، وقعت نظرته الشاردة على معصم أخيه وعلى ساعته. تَعَرَّفَ إليها: كبيرة، سوداء، تقادم عليها الزمن؛ بقيت في شقته وأخوه أخذها. لا، لم يكن هناك أي سبب يدفع جوزيف للغضب من ذلك. حدث كل شيء بناء على

تعليماته؛ ومع ذلك فإن رؤيته لساعته في معصم آخر غمره بضيق غريب. استولى عليه شعور بأنه وَجَد العالم من جديد كما يمكن أن يجده عليه ميت يخرج من قبره بعد عشرين عاماً: يلامس الأرض بقدم وجلة فقدت عادة المشي؛ يتعرف بالكاد على العالم الذي عاش فيه، لكنه يتعثر باستمرار ببقايا حياته: يرى بنطاله وربطة عنقه على جسد أحياء تقاسموها بشكل طبيعي؛ يرى كل شيء ولا يطالب بشيء: الأموات وَجِلون. لم يجد جوزيف، وقد اجتاحه وجَل الأموات هذا، القوة ليقول كلمة واحدة بشأن لوحته. نهض.

قال الأخ «عدْ هذا المساء. سنتعشى سوية»

شاهد جوزيف فجأة وجه زوجته ذاتها؛ وشعر بحاجة ملحة للتوجّه إليها، للكلام معها، لكنه لم يستطع: كان أخوه ينظر إليه منتظراً جوابه.

«اعذرني، وقتي ضيق. مرة أخرى»، وصافح كليهما بوِدّ.

في طريقه إلى الفندق، تبدى له من جديد وجه زوجته فاحتدّ: «هذا خطؤك. أنتِ من قُلْتِ لي إنّ علي الذهاب إلى هناك. لم أكن أريد. لم تكن لدي أي رغبة بهذه العودة. لكنك لم توافقي. عدم الذهاب إلى هناك أمر غير طبيعي برأيكِ، وغير مبرّر، وحتى قبيح، هل ما زلت تعتقدين أنك كنتِ محقّة؟»

20

بمجرد أن أصبح في الغرفة، فتح الرزمة التي أعطاها له أخوه: ألبوم صور طفولته، أمه وأبيه وأخيه، وجوزيف مكرَّر فيها عدة مرات؛ يضعها جانباً ليحتفظ بها. كتابان مصوران للأطفال؛ يلقيهما في سلة المهملات. رسم طفل بقلم ملون مع إهداء: «بمناسبة عيد ميلاد أمي» وتوقيعٌ مرتبك؛ يلقيه أيضاً. ثم دفتر. يفتحه: يومياته في المدرسة الثانوية. كيف استطاع أن يتركه عند والديه؟

كانت الملاحظات تعود إلى السنوات الأولى من الشيوعية، لكنه لم يجد فيها، وقد خاب فضوله، إلا وصفاً لمواعيده مع فتيات الثانوية. مراهقٌ فاجر؟ لكن لا: صبيٌّ بكر. يتصفحه بشرود، ثم يتوقف عند عتَبٍ موجّه إلى فتاة شابة: «قلتِ لي إنه ليس المقصود في الحب إلا الجسد. يا عزيزتي، كنتِ ستفرين راكضة لو أن رجلاً اعترف لك بأنه لا يرغب إلا بجسدك. وكنت ستدركين ما هو الإحساس الفظيع بالوحدة».

الوحدة. غالباً ما تعاوده هذه الكلمة. كان يحاول أن يخيفهن راسماً الاحتمال المرعب للوحدة. وحتى يحببنه، كان يعظهن مثل خوري: خارج المشاعر، يمتد الجنس كصحراء يموت المرء فيها من الحزن.

يقرأ ولا يتذكر شيئاً. إذن ماذا جاء هذا المجهول ليقول

له؟ هل جاء ليذكِّره أنه عاش قديماً هنا تحت اسمه؟ ينهض جوزيف ويتجه نحو النافذة. كانت الساحة مضاءة بشمس أواخر العصر وصورة اليدين على الحائط الكبير بدَت هذه المرة مرئية بوضوح: إحداهما بيضاء والأخرى سوداء. وفوقها شعار من ثلاثة أحرف يَعِدُ «بالأمن» و«التكافل». وبلا أدنى شك، أُنْجِزَ الرسمُ بعد عام 1989، عندما تبنى البلد شعارات الأزمنة الجديدة؛ أُخُوَّةُ جميع الأعراق؛ المزج بين كل الثقافات؛ وحدة كل الاشياء، ووحدة الجميع.

الأيدي التي تتصافح في الملصقات، سبق لجوزيف أن رآها! العامل التشيكي يصافح الجندي الروسي! ومهما كانت عتيقة، كانت هذه الصورة الدعائية تشكل بالتأكيد جزءاً من تاريخ التشيكيين الذين كان لديهم ألف سبب ليصافحوا أو يرفضوا الأيدي الروسية أو الألمانية، لكن يدٌ سوداء؟ في هذا البلد لا يكاد الناس يعرفون أن للسود وجوداً. لم ترَ أمه قط في حياتها زنجياً واحداً.

ينظر إلى هاتين اليدين المعلقتين بين السماء والأرض، الضخمتين، الكبيرتين أكثر من جرس الكنيسة، هاتان اليدان اللتان أعادتا هذا المكان بشكل فظّ إلى ديكور آخر مختلف كلياً. يتفحص بإمعان هذه الساحة تحته كما لو أنه يبحث عن آثار تركها شاب على الرصيف عندما كان يتنزه فيها مع زملاء دراسته.

«زملاء الدراسة» يلفظ هذه الكلمة ببطء وبصوت خافت،

ليشتمّ رائحة عطر بداية شبابه (المتلاشي! ولا يكاد يُشَم!)، ذلك الزمن الكامل، التائه، الزمن المهجور، الحزين مثل ميتم، لكنه على النقيض من إيرينا في المدينة الريفية الفرنسية، لا يشعر بأي انفعال حيال هذا الماضي الذي يتبدى على نحو عاجز؛ بلا أي رغبة بالعودة؛ لا شيء سوى رصيد خفيف؛ طلاق.

لو كنتُ طبيباً لكتبتُ بشأن حالته هذا التشخيص: «المريض يعاني من نقص الحنين».

21

لكن جوزيف لا يُعتقد أنه مريض. يعتقد نفسه صاحياً. نقصُ الحنين بالنسبة له هو الدليل على عدم أهمية حياته الماضية. لذلك أصحِّح تشخيصي: «المريض يعاني من تشوهٍ مازوشي في ذاكرته» وفعلاً لا يتذكر إلا الحالات التي تجعله ساخطاً على نفسه. لا يحب طفولته، لكن ألم يحظَ وهو طفل بكل ما يريد؟ ألم يكن أبوه محترماً من جميع مرضاه؟ لماذا كان أخوه يفتخر بذلك وهو لا؟ غالباً ما كان يتعارك مع زملائه الصغار وكان يُعَارِك بشجاعة. والحال هذه نسي جميع انتصاراته، لكنه سيتذكر دوماً أن رفيقاً كان يعتبره الأضعف رماه ذات يوم على ظهره وأبقاه على الأرض لعشرة ثوانٍ وهو يَعُدُّها بصوتٍ عالٍ. ما زال يشعر حتى اليوم بهذا الضغط

المخزي للأرض على بشرته. حين كان يعيش في بوهيميا ويلتقي بأناس عرفوه سابقاً، كان يُفَاجَأ دوماً أنهم يعتبرونه شخصاً شجاعاً (كان يرى نفسه جباناً)، ذا روحٍ ساخرة (كان يعتقد نفسه مضجراً) وطَيِّبَ القلبِ (لم يكُن يتذكر إلا حقاراته).

كان يعرف حق المعرفة أن ذاكرته تمقُته وأنها لم تنفك تفتري عليه؛ لذلك أرغم نفسه على عدم التفاخر بما كانت ترويه له وعلى أن يكون متسامحاً حيال حياته الخاصة. جهدٌ ضائع: لم يكن يشعر بأي متعة في النظر إلى الوراء وكان يفعل ذلك في أحيان نادرة.

بحسب ما أراد أن يُقْنِعَ نفسه والآخرين، ترك بلده لأنه لم يستطع رؤيته خانعاً ومهاناً. ما يقوله صحيح، وهذا لا يمنع أن معظم التشيكيين كانوا يشعرون مثله، خاضعين ومهانين، لكنهم لم يهرعوا إلى الخارج. ظلوا في بلدهم، لأنهم كانوا يحبون أنفسهم ولأنهم يحبون حياتهم التي لا تنفصل عن المكان الذي عاشوها فيه. وبما أن ذاكرته كانت عدوانية ولم تقدِّم لجوزيف شيئاً ممّا يمكن أن يرفع قيمة حياته في بلده، اجتاز الحدود بخطى رشيقة ودون ندم.

هل فَقَدَتْ ذاكرته في الغربة تأثيرها الضار؟ أجل؛ لأنه هناك، لم يكن لدى جوزيف الأسباب ولا المناسبات ليهتم بالذكريات المرتبطة ببلده الذي لم يعد يسكن فيه. هذا هو قانون الذاكرة المازوشية: كلما سَقَطَتْ جوانب من حياة

الإنسان في النسيان، يتخلص ممّا لا يحبه ويشعر بنفسه أكثر خفة وأكثر حرية.

وفي الأخص، سقط جوزيف عاشقاً في الغربة والعشق هو تمجيدُ الحاضر. طَرَدَ ارتباطه بالحاضر الذكريات، وحَمَاهُ من تدخلاتها؛ ولم تصبح ذاكرته أقل عدوانية، لكنها بعد أن نُحِّيَتْ وأُهْمِلَتْ، فَقَدَت سلطتها عليه.

22

كلما امتدّ الزمن الذي نتركه وراءنا، كلما أصبح الصوت الذي يدعونا للعودة لا يقاوم. يبدو هذا الحكم واضحاً، ولكنه مزيف. الإنسان يشيخ والنهاية تقترب، وتصبح كل لحظة أثمن ولا يعود يوجد زمن لتضييعه على الذكريات. يجب فهم التناقض الرياضي الظاهري للحنين: إنه أقوى في بداية الشباب عندما يكون حجم الحياة الماضية ضئيلاً جداً.

من ضباب الزمن الذي كان فيه جوزيف طالب ثانوية، أرى فتاة تنبثق، ممشوقة وجميلة وعذراء، وحزينة لأنها انفصلت للتو عن فتى. إنها قطيعتها الغرامية الأولى، وهي تعاني منها، لكن ألمها أقلّ حدة من الدهشة التي تشعر بها لاكتشافها الزمن؛ تَراه كما لم تره قط من قبل:

حتى ذلك الحين، بدا لها الزمن بمظهر الحاضر الذي يتقدم ويبتلع المستقبل؛ كانت تخشى سرعته (حين كانت تنتظر

شيئاً متعباً) أو تتمرد على بُطْئِه (حين كانت تنتظر شيئاً جميلاً). بدا لها الزمن هذه المرة مختلفاً تماماً؛ لم يعد الحاضر المنتصر هو الذي يستولي على المستقبل؛ إنما الحاضر المهزوم والأسير هو المُخْتَطَف من الماضي. ترى شاباً ينفصل عن حياتها وينطلق، عصياً على البلوغ إلى الأبد. وهي منومة مغناطيسياً، لا تستطيع أن تفعل شيئاً آخر سوى النظر إلى هذه القطعة من حياتها تبتعد، لا تستطيع إلا أن تنظر إليها وتتألم. تجربُ إحساساً جديداً تماماً يُدعى الحنين.

هذا الإحساس وهذه الرغبة العاتية بالعودة، تكشف لها في الحال وجود الماضي، سلطة الماضي، ماضيها؛ وفي منزل حياتِها ظَهَرَتْ نوافذ، نوافذ متجهة نحو الخلف، تُطِلُ على ما عاشته؛ ومن دون هذه النوافذ لن يعود وجودها، من الآن فصاعداً، قابلاً للإدراك.

ذات يوم، ومع حبيبها الجديد (حبيب أفلاطوني بالتأكيد)، تسلك درباً في الغابة قرب المدينة؛ وعلى هذا الدرب ذاته تنزَّهت قبل بضعة أشهر مع حبيبها السابق (ذاك الذي بعد قطيعتهم جعلها تختبر حنينها الأول) وهذا التطابق أثارها. تتوجه عمداً إلى مصلى صغير مهدَّم على تقاطع طرق في الغابة، لأنه هناك أراد حبيبها الأول تقبيلها. رغبة لا تقاوم تدعوها لتعيش مرة ثانية لحظات الحب الكامل. تتمنى أن تتقاطع القصتان الغراميتان، تتزاوجان، تختلطان، تومئ إحداهما للأخرى وتكبران سوية بانصهارهما.

حين حاول حبيب ذلك الوقت أن يتوقف في هذا المكان ليحتضنها، أسرعَتْ هي الخطى، سعيدة ومرتبكة، ومنعته. ما الذي سيحدث هذه المرة؟ حبيبها اليوم يبطئ سرعته أيضاً، وهو أيضاً يتأهب لاحتضانها! مبهورة بهذا التكرار (بسحر هذا التكرار) تُذْعِنُ لضرورة التشابه وتتقدم بخطى سريعة، جاذبة إياه من يده.

مُذَّاك، وهي تستسلم لسحر التشابه ولهذه الاتصالات الخفية بين الحاضر والماضي، تُفتش عن تلك الأصداء والتطابقات والتناغمات التي تجعلها تشعر بالمسافة بين ما كان وما هو كائن، وبالبعد الزمني (الجديد والمدهش) لحياتها؛ يراودها انطباع بالخروج على هذا النحو من المراهقة لتصبح ناضجة، راشدة، ما يعني بالنسبة لها: أنها أصبحت تلك الفتاة التي تَعَرَّفَتْ إلى الزمن، التي تركت مرحلة من حياتها خلفها ويمكنها الالتفات إليها لتأملها.

ذات يوم، ترى حبيبها الجديد يركض نحوها ببزة زرقاء وتتذكر أن حبيبها الأول كان يعجبها أيضاً ببزته الزرقاء. وفي يوم آخر، وهو ينظر في عينيها، امتدح جمالهما بصيغة مجازية فريدة؛ سحَرَها ذلك لأنها، فيما يخص عينيها، قال لها حبيبها الأول حرفياً الجملة الفريدة ذاتها. هذه التطابقات تُدهشها. لم تشعر أبداً أنها تعمَّقت في الجمال إلى هذا الحد إلا عندما يختلط الحنين إلى حبها الماضي بمفاجآت حبها الجديد. تَطَفُّلُ الحُب الحديث العهد على القصة التي تعيشها الآن ليس

بالنسبة لها خيانة سرية، لكنه يزيد أيضاً تعلقها بمن يمشي إلى جانبها.

وهي أكبر سناً، سترى في هذه التشابهات تماثلاً مؤسفاً للأفراد (الذين يتوقفون في المكان نفسه ليُقَبِّلُوها، ولديهم الذوق ذاته في اللباس، ويمدحون امرأة بالمجاز ذاته) ورتابة مضجرة للأحداث (التي ليست سوى تكرار أبديّ للحدث ذاته)؛ لكنها في مراهقتها، تستقبل هذه التطابقات كأنها معجزة، طامحة للكشف عن معانيها. وحقيقة أن حبيبها اليوم يشبه على نحو غريب حبها منذ عهد قريب يجعله أيضاً أكثر استثنائية، وأيضاً أكثر أصالة، وتعتقد أنه مُقَدَّرٌ بشكل غامض عليها.

23

لا، لا يوجد أي تلميح في اليوميات للسياسة. لا أثر عن تلك المرحلة، ربما ما عدا تطهرية السنوات الأولى للشيوعية، مع مثالية الحب العاطفي في الخلفية. يستوقف جوزيف بوحُ الشاب البكر: كان يجد بسهولة الجرأة لمداعبة صدر فتاة، لكن كان لا بد له أن يقهر خجله الخاص ليلمسَ رِدْفَيها. وكان لديه المعنى الدقيق: «خلال موعد البارحة، لم أتجرأ على لمس ردفها إلا مرتين».

إزاء خوفه من الأرداف، كان بالأحرى نهماً للمشاعر:

«تؤكد لي حبها، وَعْدُها بالمضاجعة هو انتصاري. . .» (ظاهرياً، المضاجعة بوصفها دليل على الحب كانت تعنيه أكثر من الفعل الجسدي ذاته). . . «لكنني أشعر بخيبة أمل: لا توجد أية نشوة في لقاءاتنا. يرعبني تصور حياتنا المشتركة». وأبعد من ذلك: «كم هو متعب الوفاء الذي لا يكون نبعه من العاطفة الحقيقية».

نشوة؛ حياة مشتركة؛ وفاء، عاطفة حقيقية. يتوقف جوزيف عند هذه الكلمات. ماذا كان يمكن أن تعني بالنسبة إلى غرٍّ؟ كانت هائلة بقدر ما هي مبهمة وكانت قوتها تكمن بالضبط في ضبابيتها. كان يبحث عن أحاسيس لا يعرفها ولا يفهمها؛ يفتش عنها عند شريكته (مترصداً أي انفعال ينعكس على وجهها)، يفتش عنها في نفسه (خلال ساعات لا نهاية لها من الاستيهام)، لكنه ظل دوماً محروقاً. لذلك سَجَّلَ (ولا بد لجوزيف أن يعترف بنفاذ البصيرة المدهش لهذه الملاحظة): «الرغبة بالشعور بالشفقة حيالها والرغبة بتعذيبها هما رغبة واحدة». وفعلاً، كان يتصرف كالمنقاد بهذه الجملة: لكي يشعر بالشفقة (ليبلغ نشوة الشفقة)، كان يفعل ما بوسعه ليرى صديقته تتعذب، كان يعذبها: «أيقظتُ عندها شكوكاً بحبي. ارتمت بين ذراعي، واسَيْتُها، اغْتَسَلْتُ بحزنها، وخلال برهة، شَعَرْتُ بنار الإثارة تضطرم في داخلي».

يحاول جوزيف أن يفهم الشاب البكر، أن يضع نفسه مكانه، لكنه غير قادر على ذلك. هذه العاطفية الممزوجة

بالسادية مناقضة كلياً لذوقه وطبيعته. ينزع صفحة بيضاء من مذاكرته، ويتناول قلم رصاص وينسخ الجملة ثانية: «... اغتسلْتُ بحزنها» يتأمل طويلاً الخطّين: الخط القديم أرعنٌ قليلاً، لكن لحروفه شكل حروف اليوم ذاتها. هذا التشابه يُنَفِّره، يُزْعجه ويصدمه. كيف يمكن لكائنين غريبين ومتناقضين إلى هذا الحد أن يكون لهما الخط ذاته؟ مما يتألف هذا الجوهر المشترك الذي يجعل منه ومن هذا السوقي شخصاً واحداً؟

24

لم يكن الشاب البكر ولا فتاة الثانوية لديهما شقة لينفردا ببعضهما؛ والمضاجعة التي كانت قد وعدته بها لا بد أنها تأجلت إلى عطلة الصيف التي كانت بعيدة. وهما ينتظران، راحا يمضيان الوقت، كل منهما يمسك يد الآخر، على الأرصفة أو على دروب الغابة (لم يكن العشاق الشباب ذلك الحين يتعبون من المشي) محكومين بأحاديث مكررة وبملامسات لا تقود إلى أي مكان. في تلك الصحراء بلا نشوات، أخبرها ذات يوم أن انفصالهما أصبح حتمياً لأنه سينطلق عما قريب إلى براغ.

فُوجِئ جوزيف مما قرأه: الانطلاق إلى براغ؟ كان هذا المشروع مستحيلاً بكل بساطة، فأسرته لم ترغب قط بمغادرة

مدينتها. وفجأة، تَصْعَدُ الذكرى من النسيان، حاضرة وحية على نحو مزعج: ها هو على درب الغابة، واقفاً في مواجهة هذه الفتاة، ويحدثها عن براغ! يتحدث عن انتقاله ويكذب! يتذكر تماماً ضميره الكاذب، يرى نفسه يتكلم ويكذب، يكذب ليرى طالبة الثانوية تبكي!

يقرأ. «وهي تنتحب، احتضنتني بين ذراعيها. كنتُ متنبهاً إلى أقصى حدّ لكل مظهر من مظاهر ألمها، وأشعر بالأسف لأنني لم أعد أتذكر بدقة عدد شهقاتها».

هل هذا ممكن؟ «متنبه إلى أقصى حد لكل مظهر من ألمها»، عَدَّ شهقاتها! هذا الجلاد - العداد! هذه كانت طريقته بالشعور والعيش والاستمتاع وتحقيق الحب. كان يضمها بين ذراعيه، تنتحب ويَعُد!

يتابع القراءة: «ثم هدأت وقالت لي: «أفهم الآن هؤلاء الشعراء الذين ظلوا أوفياء حتى الموت» رفعت وجهها نحوي وشفتاها ترتعشان»، في المذكرات وضع خطاً تحت كلمة «ترتعشان».

لا يتذكر كلماته ولا شفتيها اللتين ترتعشان. الذكرى الوحيدة الحية، هي اللحظة التي كان يروي فيها أكاذيبه عن الانتقال إلى براغ. لم يبقَ أي شيء آخر في ذاكرته. يرغم نفسه أن يستحضر بأكبر قدر من الوضوح قسمات تلك الفتاة الشابة الدخيلة التي لم تكن تنتسب إلى المغنين ولاعبي التنس، إنما إلى الشعراء؛ الشعراء «الذين يظلون أوفياء حتى

الممات»! ويستمتع بالمفارقة التاريخية لهذه الجملة المدونة بعناية ويشعر بحنان متزايد حيال هذه الفتاة المهجورة بعذوبة. الشيء الوحيد الذي يلومها عليه هو عشقها لسوقي مَقيت لا يرغب إلا في تعذيبها.

آه، هذا السوقي؛ يراه يركِّز على شفتي الفتاة الشابة، الشفتين اللتين ترتعشان رغماً عنها، غير المنضبطتين، ولا يمكن ضبطهما! لا بد أنه أثير من ذلك كما لو أنه كان يراقب نشوة جماع (نشوة جماع أنثوية لم يكن لديه أية فكرة عنها)! ربما انتصب قضيبه! بالتأكيد!

كفى! يقلب جوزيف الصفحات ويعرف أن طالبة الثانوية كانت تستعد للذهاب إلى جبل مرتفع من أجل ممارسة التزلج مع صفها لمدة أسبوع؛ احتج السوقي؛ وهدَّدها بالقطيعة؛ شرحت له أن هذا يدخل في عداد الفروض المدرسية؛ لم يرغب بسماع أي شيء وبدأ يغضب (أيضاً نشوة! نشوة الغضب): «إذا ذهبْتِ، ستكون النهاية بيننا، أقسمُ لك على ذلك، النهاية!»

بماذا أجابته؟ هل ارتعشت شفتاها عندما سمعت نوبته الهستيرية؟ بالتأكيد لا، لأن هذه الحركة غير المنضبطة للشفتين، ونشوة الجماع البكرية هذه، كانت ستثيره إلى حدّ أنه ما كان ليفوته ذكرها. ظاهرياً، هذه المرة، بالغ في تقدير سلطته. لأنه لم تعد توجد أية ملاحظة تستحضر طالبته الثانوية. يتتالى وصف مواعيد تافهة مع فتاة أخرى (يقفز فوق

الأسطر) وتنتهي المذكرات بنهاية الصف السابع (الثانويات التشيكية تتألف من ثمانية)، بالضبط حين جعلته امرأة أكبر منه سناً (هذه يتذكرها جيداً) يكتشف الحب الجسدي وحَوَّلَت مجرى حياته باتجاه آخر؛ كل هذا لم يُدَوِّنْه؛ لم تستمر المذكرات إلى ما بعد بكارة مؤلفها؛ فَصْلٌ قصيرٌ جداً من حياته أُنْجِزَ وبلا تتمة ولا نتائج، نُفِيَ إلى الدائرة المظلمة للأشياء المنسية.

يبدأ بتمزيق صفحات المذكرات إرباً. لا شك أنها حركة مبالغٌ بها وغير مُجدية؛ لكنه يشعر بالحاجة إلى أن يُطلق العنان لنفوره؛ الحاجة إلى تدمير السوقي حتى لا يأتي يوم (وقد لا يحدث هذا إلا في حلم سيئ) يمتزج به، وينعق مكانه، ويُعْتَبَرُ مسؤولاً عن كلماته وأفعاله.

25

في هذه اللحظة رنَّ الهاتف. تذكَّرَ المرأة التي صادفها في المطار ورفع السماعة.

«اسمعوا: أنتم لم تعرفوني

- بلى، بلى، أعرفكِ حق المعرفة. لكن لماذا تكلمينني بأنتم؟

- إذا أَرَدْتَ، أخاطبكَ بأنتَ! لكن لا يمكنكَ أن تعرف مع من تتكلم»

لا، لم تكن هذه امرأة المطار. كان واحداً من تلك الأصوات المقيتة ذات الحنين الكريه. شعر بالارتباك، قدّمت نفسها: ابنة زوجته الأولى التي طلقها بعد بضعة أشهر من الحياة المشتركة، منذ نحو ثلاثين عاماً تقريباً.

«في الحقيقة، لم يكن بوسعي أن أعرف مع من أتكلم» قال بضحكة مرغمة.

منذ الطلاق، لم يرهما مجدداً، لا طليقته ولا ابنتها التي بقيت في ذاكرته طفلة صغيرة.

«أنا بحاجة لأكلمكم، لأكلمك» صححت.

أَسِفَ لأنه كلَّمَها بصيغة المفرد، أزعجته هذه الألفة، لكن لم يعد بوسعه أن يفعل شيئاً: «كيف تعرفين أنني هنا؟ لا أحد يعرف ذلك.

- مع ذلك عرفت.

- كيف؟

- زوجة أخيك.

- لم أكن أعلم أنك تعرفينها.

- أمي تعرفها»

فجأة، فهم التحالف الذي تشكَّل عفوياً بين المرأتين.

«إذاً، أنتِ تتصلين بي نيابة عن أمك؟»

أصبح الصوت المقيت ملحاً: «أنا بحاجة لأكلمك، يجب أن أكلمك.

- أنتِ أم أمك؟

- أنا

- قولي لي أولاً ما الأمر.

- هل تريد رؤيتي أم لا؟

- أرجوك أن تقولي لي ما الأمر»

أصبح الصوت المقيت عدوانياً: «إذا لم تُرِدْ رؤيتي، إذاً قل لي ذلك بصراحة»

كان يكره إصرارها، لكنه لم يجد الجرأة لطردها، كان حفاظ ابنة طليقته على سرية سبب الموعد المطلوب مكراً فعالاً: شعر بالقلق.

«أنا هنا لبضعة أيام فقط، ومستعجل. قد أجد عند الضرورة نصف ساعة...» وأعطاها موعداً في براغ، في مقهى، يوم رحيله.

«لن تأتي

- سآتي»

عندما أغلق السماعة، شعر بالغثيان. ما عساها كانت تريد منه؟ نصيحة؟ لا يكون المرء عدوانياً عندما يحتاج إلى نصيحة. كانتا تريدان إزعاجه. وأن تبرهنان أنهما موجودتان. وأن تأخذان من وقته. لكن في هذه الحالة لماذا وافق على الموعد معها؟ بدافع الفضول؟ هكذا إذاً! بدافع الخوف استسلم. لقد خضع لردّ فعل انعكاسي قديم: حتى يستطيع الدفاع عن نفسه، كان يريد دوماً أن يستعلم في الوقت المناسب عن كل شيء. لكن يدافع عن نفسه؟ اليوم؟ ضد

ماذا؟ بالتأكيد لم يكن ثمة أي خطر. بكل بساطة، لَفَّهُ صوت ابنة طليقته بضباب ذكريات قديمة: دسائس؛ تدخلات الأبوين؛ إجهاض؛ بكاء؛ وشايات؛ ابتزاز؛ عدوانية عاطفية؛ مشاهد غضب؛ رسائل مجهولة: تواطؤ البوابين.

للحياة التي تركناها خلفنا عادة سيئة وهي الخروج من الظلام، والتذمر منا، واتهامنا. بعيداً عن بوهيميا، كان جوزيف قد نسي ما حفظه عن أخذ ماضيه بعين الاعتبار. لكن الماضي كان موجوداً ينتظره ويراقبه. وهو يشعر بالضيق، أرغم جوزيف نفسه على التفكير بشيء آخر. لكن بماذا يمكن لرجل عائد لرؤية بلد ماضيه أن يفكر، إن لم يكن بماضيه؟ ماذا سيفعل خلال اليومين المتبقيين له؟ هل سيزور المدينة التي كانت فيها عيادته البيطرية؟ وهل سيقف متحنناً، أمام البيت الذي يسكنه؟ لم تراوده أية رغبة بذلك. وهل يوجد في الأقل أحد من معارفه القدامى يود بصدق أن يلقاه؟ انبثقت صورة «ن». قديماً عندما اتَّهَمَ المهووسون بالثورة الفتى جوزيف، الله أعلم بأي تهمة (في تلك السنوات، كان جميع الناس يُتهمون في أية لحظة والله أعلم بأي تهمة) دَافَعَ عنه «ن» النافذ في الجامعة، دون أن يهتم بآرائه وآراء أسرته. هكذا أصبحا صديقين وإذا كان يمكن لجوزيف أن يلوم نفسه على شيء ما، فإنه يلومها على نسيانه له تقريباً خلال هجرته.

«المفوض الأحمر! كان الجميع يرتعشون أمامه!» كانت زوجة أخيه قد قالت وهي تُلَمِّح إلى أن جوزيف ارتبط

بمصلحة مع أحد رجال النظام. بلاد مسكينة تلك التي تهزها أحداث تاريخية عظيمة! بعد أن تنتهي المعركة، يهجم الجميع إلى نزهات عقابية في الماضي ليطاردوا الجُنَاة فيه. لكن من هم الجُنَاة؟ الشيوعيون الذين ربحوا في عام 1948؟ أم خصومهم العاجزين الذين خسروا؟ كان الجميع يطاردون الجُنَاة وكان الجميع مُطَارَدين. عندما دخل أخو جوزيف إلى الحزب، حتى يستطيع متابعة دراسته، اتهمه أصدقاؤه بالوصولية. هذا ما جعله يمقت أكثر الشيوعية التي كان يحمِّلها مسؤولية جبنه، وكانت زوجته قد كظمت كراهيتها لأشخاص مثل «ن» الذي شارك، هو المؤمن بالماركسية قبل الثورة، بملء إرادته (إذاً دون أن يكون له أي عذر) في ولادة ما كانت تعتبره أعظم شر.

رن الهاتف من جديد. رفع السماعة، وهذه المرة كان واثقاً من معرفتها: «أخيراً!

- آه، ما أسعدني بقولك «أخيراً»! هل انتظرتَ مكالمتي؟

- بفارغ الصبر

- حقاً؟

- كنتُ بمزاج سيئ جداً! سماعُ صوتك يغيِّر كل شيء!

- آه، أنت تسعدني! كم أود لو كنْتَ هنا، معي، هنا حيث أنا.

- كم أنا آسف لأن هذا غير ممكن.

- هل تتأسف على ذلك؟ حقاً؟

- حقاً.

- هل سأراك قبل رحيلك؟

- أجل، سترينني.

- هذا أكيد؟

- أكيد! نتغدى سوية بعد غد!

- سأكون في غاية السعادة».

ودلّها على عنوان فندقه في براغ

حين أغلق السماعة، وقعت نظرته على المذكرات الممزّقة، استحالت إلى كومة صغيرة من قصاصات ورق على الطاولة. أخذ كل هذا الورق وألقاه بمرح في سلة المهملات.

26

قبل ثلاث سنوات من عام 1989، افتتح غوستاف في براغ مكتباً لشركته، لكنه لم يكن يقضي فيها إلا بضع إقامات في العام. اكتفى بذلك حتى يحب هذه المدينة ويرى فيها مكاناً مثالياً للعيش، ليس فقط بسبب حبه لإيرينا إنما أيضاً (وربما خاصة) لأنه كان يشعر بنفسه فيها، أيضاً أكثر مما في باريس، منقطعاً عن السويد، وعن أسرته، وعن حياته الماضية. وحين اختفت الشيوعية فجأة من أوروبا، لم يتردَّد في فرض براغ على شركته كنقطة استراتيجية لفتح أسواق جديدة: جعلهم يشترون منزلاً باروكياً جميلاً جَهَّزَ فيه مكاتب واحتفظ بغرفتين

لنفسه في الملحق. من جهتها، أم إيرينا التي كانت تسكن وحيدة في فيللا بإحدى الضواحي وضعت الطابق الأول بكامله تحت تصرف غوستاف؛ بحيث كان بوسعه أن يبدل سكنه بحسب مزاجه.

بعد أن كانت نائمة ومهملة في الحقبة الشيوعية، استيقظت براغ على مرأى منه، ازدحمت بالسيّاح، تألقت بالمتاجر والمطاعم، وتزينت بالمنازل الباروكية المرمَّمة والمطلية من جديد، كان يهتف متعجباً: "Prague is my town!". كان يعشق هذه المدينة: ليس كوطني يبحث في كل زاوية من البلد عن جذوره، وذكرياته، وآثار موتاه، إنما كمسافر يسلم نفسه للمفاجأة والدهشة، كطفل يتنزه، مفتوناً، في مدينة الملاهي ولا يريد مغادرتها. بعد أن تعلم التعرّف على تاريخ براغ، راح يتشدّق مطولاً، أمام من يرغب بالاستماع إليه، عن شوارعها وقصورها وكنائسها، ويتكلم بإسهاب عن نجومها: عن الإمبراطور رودولف (حامي الرسامين والكيميائيين)، عن موزارت (الذي بحسب ما يُقال كانت له عشيقة فيها)، وعن فرانز كافكا (الذي أصبح بفضل وكالات السفر القديس الشفيع بعد أن عاش طيلة حياته في هذه المدينة بائساً).

بسرعة غير متوقعة، نسيت براغ اللغة الروسية التي اضطر سكانها خلال أربعين عاماً أن يتعلموها في المدرسة الابتدائية، وهي متلهفة لكي يصفقوا لها على مسرح العالم، تفاخرت أمام

عابري السبيل بالتزين بالكتابات الإنجليزية: skateboarding, snowboarding, streetwear, publishing house, National Gallery, cars for hire, pomonamarkets وهلم جرّاً. في مكاتب شركته، كان الموظفون والشركاء التجاريون والزبائن الأثرياء يخاطبون غوستاف بالإنجليزية، حتى إن التشيكية لم تكن سوى همس مبهم، ديكور صوتي، وحدها التصويتات الأنجلوسكسونية تبرز منه بوصفها كلمات إنسانية. هكذا، ذات يوم، عندما هبطت إيرينا في براغ، لم يرحب بها في المطار أيضاً بعبارتهم المألوفة "!Salut" الفرنسية، بل بـ "!Hello".

ودفعة واحدة، انقلب كل شيء. لنتصور حياة إيرينا بعد موت مارتن: لم يعد لديها أحد تتكلم معه التشيكية، وابنتاها ترفضان أن تضيّعا وقتهما على لغة لا فائدة منها بالتأكيد؛ وأصبحت الفرنسية بالنسبة لها اللغة اليومية، لغتها الوحيدة؛ ولذلك كان من الطبيعي جداً أن تفرضها حينذاك على صديقها السويدي. هذا الاختيار اللغوي حدَّد أدوارهم: بما أن غوستاف كان يتكلم الفرنسية بشكل سيئ، لذلك كانت هي من تتولى قيادة الكلام في علاقتهما الزوجية؛ وكانت مفتتنة بفصاحتها: يا إلهي، بعد هذا الزمن الطويل، صار بوسعها أخيراً الكلام، الكلام والإصغاء إلى كلامها! كان تفوّقها اللفظي قد وازن علاقة القوة بينهما: كانت تابعة له تماماً لكنها في أحاديثهما، كانت تسيطر عليه وتقوده إلى عالمها الخاص بها.

إذاً، أعادت براغ تشكيل لغة الزوجين؛ كان يتكلم الإنجليزية وهي تحاول الاستمرار في فرنسيتها التي تشعر أنّ تعلّقها بها يزداد، لكنها حين لم تلقَ أي دعم خارجي (الفرنسية لم تعد تمارس سحرها في هذه المدينة التي كانت محبة لفرنسا قديماً) انتهت إلى الرضوخ؛ وانقلبت علاقتهما: في باريس، كان غوستاف قد أصغى بانتباه إلى إيرينا المتعطشة لكلامها الخاص؛ وفي براغ، أصبح هو الثرثار، ثرثار كبير، ثرثار مديد. وبما أن إيرينا لا تجيد الإنجليزية، لم تكن تفهم إلا نصف ما يقوله، وبما أنها لم تكن ترغب ببذل أي جهد؛ صارت تستمع إليه أقل وتكلمه أيضاً أقل. بدت عودتها العظيمة في غاية الغرابة: في الشوارع، وهي محاطة بالتشيكيين، كانت تداعبها نفحة أليفة من الماضي الغابر، وتجعلها سعيدة لبرهة؛ ثم بعد عودتها إلى المنزل، تصبح أجنبية تلوذ بالصمت.

يهدهد حديث متواصل الزوجين، ويُلْقي تياره الشجيّ وشاحاً فوق رغبات الجسد الآفلة. عندما ينقطع الحديث، ينبعث غياب الحب الجسدي كشبح. وبإزاء صمت إيرينا، فَقَد غوستاف ثقته بنفسه. وآثر منذ ذلك الحين أن يراها بحضور أسرتها، أمها وأخيها غير الشقيق وزوجته؛ كان يتعشى معهم جميعاً في الفيللا أو المطعم، باحثاً بصحبتهم عن ملاذ وملجأ وعن السلام. لم يشتاقوا قط للموضوعات، لأنه لم يكن بوسعهم التطرق إلا إلى القليل منها: كانت مفرداتهم محدودة

ولكي يتفاهموا كان يترتب عليهم جميعاً أن يتكلموا ببطء وأن يكرِّروا كلامهم. كان غوستاف في حالة مَن يستعيد صفاءه؛ فهذه الثرثرة ببطء كانت تناسبه، كانت مريحة وممتعة وحتى مرحة (كم مرة ضحكوا من كلمات إنجليزية شُوِّهَتْ على نحو هزلي!)

منذ زمن طويل، فرغت عينا إيرينا من الرغبة، لكنهما ظلّتا بقوة العادة مفتوحتين على غوستاف وكانتا تزعجانه. ولكي يُضَيِّع الآثار ويموه تراجعه الجنسي، كان ينغمس بحكايات فاحشة على نحو لطيف، وبتلميحات ملتبسة على نحو طريف، يلفظها بصوت مرتفع وهو يضحك. كانت الأم حليفته المفضلة، مستعدة دوماً لدعمه بدعابات ماجنة تلفظها بطريقة تقليدية ساخرة مبالغ فيها، بإنجليزيتها الصبيانية. وهي تستمع إليهم، كانت إيرينا تشعر بأن الرغبة الجنسية استحالت إلى تهريج طفولي إلى الأبد.

27

منذ أن صادفت جوزيف في باريس، لم تعد تفكر إلا فيه. تتذكر بلا انقطاع مغامرتهما القصيرة قديماً في براغ، في الحانة التي ارتادتها مع أصدقائها، كان الأكثر نضجاً والأكثر إثارة للاهتمام من الآخرين؛ بدا مسلياً ومغرياً ولم يكن يهتم إلا بها. وعندما خرجوا جميعاً إلى الشارع، حاول أن يَبقيا معاً

وحيدين. كان قد دسّ في يدها منفضة سجائر سرقها لأجلها من الحانة. ثم دعاها هذا الرجل الذي تعرّفت إليه منذ بضع ساعات إلى منزله. ولأنها مخطوبة لمارتن، لم تُسعفها الشجاعة ورفضت، لكنها سرعان ما شعرت بأسف عنيف وعميق إلى حدّ أنها لم تنسه قط.

لذلك وقبل انطلاقها في هجرتها، عندما كانت تختار بين ما ستأخذه معها وما ستتركه، وضعت منفضة سجائر الحانة الصغيرة في الحقيبة؛ وفي الغربة، غالباً ما كانت تحملها سراً في حقيبة يدها كتميمة.

تتذكر أنه في قاعة انتظار المطار قال لها بنبرة جهورية وغريبة: «أنا رجل حر تماماً» وراودها إحساس أن قصة حبهما، التي بدأت قبل عشرين عاماً، أُرْجِئَتْ فقط إلى اللحظة التي سيكونان فيها كلاهما حُرَّين.

وتتذكر جملة أخرى له أيضاً: «أنا أَمُرُّ بباريس بمحض المصادفة»، مصادفة، هي طريقة أخرى ليقول لها: قَدَر؛ إذ كان لا بد أن يمر بباريس كي تستمر قصّتهما هناك حيث كانت قد انقطعت. الهاتف النقال في يدها، تحاول أن تتصل به من كل مكان توجد فيه، من المقهى، من شقة صديقتها، من الطريق. رقم الفندق صحيح، لكنه لا يوجد في غرفته أبداً. تفكر طوال النهار فيه، وكما تتجاذب الأضداد، بغوستاف أيضاً. حين تمر بجانب حانوت يبيع تذكارات، ترى في الواجهة قميصاً عليه رأس كئيب ومسلول ومدون بالإنجليزية

Kafka was born in Prague. هذا القميص، الغبي إلى حدّ الروعة، أذهلها فاشترته.

تعود قبيل المساء إلى منزلها تراودها فكرة أن تهاتفه بهدوء من هناك، لأنه يوم الجمعة وغوستاف يعود دوماً متأخراً؛ وبعكس كل توقع، كان في الطابق الأرضي مع أمها، والغرفة ترن بثرثرتهما التشيكية - الإنجليزية التي يتخللها صوت تلفاز لا أحد يشاهده. تُنَاوِلُ الصرّة الصغيرة إلى غوستاف: «هذه لأجلك!».

ثم تتركهما يُعْجَبَان بالهدية وتصعد إلى الطابق الأول حيث تنزوي في المرحاض. وهي جالسة على حافة الحوض، تسحب الهاتف من حقيبتها. تسمع «أخيراً!»، ومفعمة بالفرح، تقول له: «كم أودّ لو أنك معي، هنا حيث أكون»؛ وفقط بعد أن تلفظت بهذه الكلمات أدركت المكان الذي هي تجلس فيه واحمرت خجلاً؛ فاجأتها البذاءة العفوية التي تفوهت بها، وأثارتها على الفور. في تلك اللحظة، ولأول مرة بعد سنوات كثيرة، يراودها انطباع بأنها تخدع حبيبها السويدي وتشعر بمتعة فاحشة لذلك.

حين تنزل من جديد إلى القاعة، كان غوستاف ارتدى القميص ويضحك بصخب. تحفظ عن ظهر قلب هذا المشهد: محاكاة ساخرة للإغواء، هزليات مبالغة؛ بديلٌ شيخوخي للشبقية المُطْفَأَة. الأم تمسك غوستاف من يده وتخبر إيرينا: «دون إذنك سمحت لنفسي أن ألبسها لحبيبك.

أليست جميلة؟» وتلتفت معه نحو مرآة كبيرة مثبتة بحائط القاعة. وهي تنظر إلى صورتهما، ترفع ذراع غوستاف كما لو أنه فائز في مباراة أولمبية، وهو مُمَثِّلاً الدور بانقياد، ينفخ صدره أمام المرآة ويصيح بصوته الرنان: "Kafka was born in Prague!".

28

كانت طالبة الثانوية قد انفصلت عن حبيبها الأول دون ألم كبير. مع الثاني كان الأمر أسوأ. حين سمعته يقول: «إذا ذَهَبْتِ، ستكون النهاية بيننا، أُقْسِمُ لك على ذلك، النهاية!»، لم تستطع أن تتفوه بأية كلمة، كانت تحبه وكان هو يقذف في وجهها ما كان سيبدو لها، قبل لحظات قليلة فقط، ما لا يمكن تصوره ولا التفوه به: القطيعة بينهما.

«ستكون النهاية بيننا» النهاية. وما دام يَعِدُها بالنهاية، فبماذا يجب أن تَعِدَه هي؟ جملته تتضمن تهديداً، وجملتها ستتضمن تهديداً أيضاً: «موافقة، تقول بهدوء ورصانة. ستكون النهاية إذاً. أَعِدُكَ أنا أيضاً وسَتَتَذَكَّر هذا» ثم أدارت له ظهرها تاركة إياه متسمراً في الشارع.

كانت مجروحة، لكن هل كانت حانقة عليه؟ على الأرجح لا. بالطبع، كان عليه أن يبدي تفهماً أكبر، لأنه كان واضحاً أنه لا يسعُها التهرب من الرحلة، التي كانت إجبارية.

وحتى لو أرغمت نفسها على التظاهر بالمرض، ما كانت لتنجح بسبب نزاهتها الحمقاء. وبلا أدنى شك، كان يبالغ، وكان جائراً، لكنها كانت تعرف أنه كذلك لأنه يحبها. تَعْرِفُ غيرته: كان يتخيلها في الجبل بصحبة فتيان آخرين ويتألم من ذلك.

وهي غير قادرة أن تحنق عليه جدياً، انتظرته أمام الثانوية لتشرح له أنها بأفضل عزيمة في العالم لا يسعها أن تطيعه وأنه لا يوجد أي سبب ليغار؛ وكانت واثقة أنه لا يسعه إلا أن يفهم. على العتبة، رآها وتوقّف ليصطحب زميلاً. محرومة من مواجهته، تتبعه في الشارع وحين استأذن من زميله، أسرعت الخطى نحوه. المسكينة، لا بد أنها ظنّت بأن كل شيء ضاع وأن صديقها تحت تأثير هيجان لم يعد يفارقه. ولم تكد تبدأ بالتحدث إليه حتى قاطعها: «هل غَيَّرْتِ رأيك؟ هل سترفضين؟» حين بدأت تشرح له الأمر ذاته للمرة العاشرة، هو من استدار على عقبيه وتركها وحيدة وسط الشارع.

غرقت في حزن عميق، لكن دوماً دون غضب عليه. كانت تعرف أن الحب يعني أن يهبَ كل واحد للآخر كل شيء. كل شيء: الكلمة الجوهرية. كل شيء، إذاً ليس فقط الحب الجسدي الذي وعدته به، إنما أيضاً الشجاعة، الشجاعة في الأمور العظيمة كما في الصغيرة، وهذا يعني حتى هذه الشجاعة التافهة لعصيان أمر مدرسة مثير للسخرية. واكتشفت خجلةً أنها رغم كل حبها لم تكن قادرة على إيجاد هذه

الشجاعة: يا له من أمر مضحك، مضحك إلى حدّ البكاء: كانت مستعدة لتهبه كل شيء، وعذريتها بالتأكيد ولكن أيضاً، لو أراد ذلك، صحتها، وأية تضحية يمكن تخيلها، وفي الوقت ذاته لم تكن قادرة على عصيان مدير ثانوية بائس. هل كان يجب أن تستسلم للهزيمة بسبب مثل هذه التفاهة؟ كان عدم الرضى الذي تشعر به حيال نفسها لا يُحْتَمل وأرادت التخلص منه بأي ثمن؛ أرادت الوصول إلى عظمة تتلاشى فيها تفاهتها؛ عظمة ينتهي للخضوع لها؛ أرادت الموت.

29

الموت؛ قرار الموت؛ هو أسهل بكثير على المراهق من الراشد. ماذا؟ ألا يَحْرِمُ الموت المراهق من حصة من المستقبل أكبر بكثير؟ طبعاً، لكن بالنسبة إلى فتى، المستقبل هو شيء بعيد، مجرد، غير واقعي، لم يقتنع به جدياً.

وهي مندهشة، راحت تنظر إلى حبّها المنقطع، أجمل قطعة في حياتها، يبتعد ببطء وإلى الأبد؛ ولم يعد يوجد شيء بالنسبة لها إلا هذا الماضي؛ وهو ما كانت تريد إظهار نفسها له، وهو ما كانت تريد أن تكلّمه وترسل إشارات له. لم يكن المستقبل يهمها؛ كانت ترغب بالخلود؛ الخلود، هو الزمن الذي يتوقف، ويتسمّر؛ المستقبل يجعل الخلود مستحيلاً، كانت ترغب بإفناء المستقبل.

لكن كيف تموت وسط حشد من التلاميذ، في فندق صغير في الجبل، على مرأى من الجميع باستمرار؟ وَجَدَتْها: تخرج من الفندق وتذهب بعيداً، بعيداً جداً في الطبيعة، وفي مكان ما منعزل عن الدروب، تتمدد على الثلج وتغفو. سيأتيها الموت في رُقَادها، موت من التجمّد، موت عذب، دون ألم. وسيترتب عليها فقط أن تجتاز برهة قصيرة من البرد. وسيسعها فضلاً عن ذلك اختصارها بمساعدة بضعة أقراص منومة. ومن عبوة مُخَبَّأة في المنزل، أخذت خمسة أقراص، ليس كثيراً، حتى لا تلاحظ أمها شيئاً.

خططت لموتها بكل حسّها العملي. ستخرج مساءً وتموت في الليل، تلك كانت فكرتها الأولى، لكنها استبعدتها: سيلاحظون في الحال غيابها عن قاعة الطعام عند العشاء والمؤكد أكثر أيضاً عن عنبر النوم. اختارت بدهاء توقيت ما بعد الغداء حين يهجع الجميع في قيلولة قبل الذهاب إلى التزلج: استراحة لن يقلق أحد خلالها لغيابها.

أَلَمْ تكن ترى التباين الصارخ بين تفاهة السبب وجسامة الفعل؟ ألم تكن تعرف أن مشروعها مبالغاً؟ أجل، لكن المبالغة بالضبط هي ما كانت تجذبها. لم تكن تريد أن تكون عقلانية، لم تكن تريد أن تتصرف بطريقة متزنة، لم تكن تريد أن تزن الأمور ولم تكن تريد أن تفكر. كان يعجبها شغفها، وهي تعرف أن الشغف بالتعريف هو مبالغة. وهي ثملة، لم تكن تريد الخروج من ثملها.

ثم جاء اليوم الذي اختارته. تخرج من الفندق. بجانب الباب ميزان حرارة معلق: عشرة درجات تحت الصفر. تسير في طريقها وتكتشف أن القلق حلّ مكان ثملها؛ عبثاً تبحث عن افتتانها، عبثاً تدعو الأفكار التي صاحبت حلمها بالموت؛ مع ذلك تواصل طريقها (زملاء دراستها يهجعون في هذه اللحظة في قيلولتهم الإلزامية) كما لو أنها تؤدي مهمة كُلِّفَتْ بها، كما لو أنها تمثل دوراً كُتِب لها. روحها فارغة، دون أي شعور، كروح ممثل يتلو نصاً ولا يفكر بما يقول.

تصعد درباً يلمع بالثلج وتجد نفسها بعد فترة وجيزة على قمة الجبل. السماء من فوقها زرقاء؛ والعديد من الغيوم المشمسة والذهبية والمرحة كانت تحتها، مستندة كإكليل كبير إلى الدائرة العريضة للجبال المحيطة. هذا جميل، هذا ساحر، ويراودها إحساس خاطف، خاطف جداً، بالسعادة التي تجعلها تنسى الهدف من سيرها. إحساس خاطف، خاطف جداً، خاطف أكثر مما ينبغي. تبتلع الأقراص واحداً تلو الآخر، وحسب خطتها، تهبط من القمة نحو غابة. تسلك درباً جبلياً، وبعد عشرة دقائق تشعر بالنعاس يقترب وتعرف أن النهاية حانت. الشمس فوق رأسها، ساطعة، ساطعة. وكما لو أن الستارة رُفِعَتْ فجأة، ينقبض قلبها من الخوف. تشعر أنها في فخّ على مسرح مُضاء أُغْلِقَت جميع مخارجه.

تجلس تحت شجرة صنوبر، وتفتح حقيبة يدها وتسحب منها مرآة. إنها مرآة صغيرة مدورة، تضعها أمام وجهها وتنظر

إلى نفسها فيها. إنها جميلة، جميلة جداً، ولا تريد أن تترك هذا الجمال، لا تريد أن تفقده، تريد أن تأخذه معها، آه، ها هي متعبة، متعبة جداً، لكن حتى وهي متعبة تُذْهَلُ بجمالها لأن ذلك هو أثمن ما تملكه في هذا العالم.

تتمرى في المرآة، وترى شفتيها ترتعشان. إنها حركة لا إرادية. سبق أن اكتشفت مراراً ردة الفعل هذه لديها، وشعرت بها على وجهها، لكنها المرة الأولى التي تراها فيها. وهي تراها، تأثرت مضاعفاً: تأثرت من جمالها وتأثرت من شفتيها المرتعشتين؛ تأثرت من جمالها وتأثرت من الانفعال الذي يزعزع هذا الجمال ويشوهه؛ تأثرت من جمالها الذي يبكيه جسدها. تجتاحها شفقة هائلة على جمالها الذي لن يكون عمّا قريب، وشفقة على العالم الذي لن يكون أيضاً، جمالها الذي لن يوجد بعد الآن، الذي لا يمكن إدراكه الآن، لأن النعاس هناك، يحملها، يحلق معها، عالياً، عالياً جداً، نحو هذا النور الهائل المبهر، نحو السماء الزرقاء، الزرقاء على نحو ساطع.

30

حين قال له أخوه: «تَزَوَّجْتَ هناك، على حد علمي»، أجاب: «أجل» دون أن يضيف شيئاً زيادة. لعله كان يكفي أن يستخدم أخوه صيغة أخرى وبدل «تزوجْتَ» أن يسأل: «هل

أنت متزوج؟» لكان جوزيف أجاب في هذه الحالة: «لا، أنا أرمل» لم يكن ينوي أن يخدع أخاه، لكن الطريقة التي صاغ بها جملته سمحت له، دون أن يكذب، بكتمان موت زوجته.

خلال الحديث التالي، تجنب أخوه وزوجته أي تلميح لها. وبداهة كان ذلك بدافع الارتباك: كانا قد امتنعا لأسباب أمنية (ليتجنبا استدعاءات الشرطة) عن أي اتصال مع قريبهما المهاجر وحتى لم يدركا أن هذا الحرص المفروض سرعان ما تحول إلى لا مبالاة صادقة: لم يكونا يعرفان شيئاً عن زوجته، لا عمرها ولا اسمها ولا مهنتها، وبِصَمْتِهما كانا يريدان إخفاء هذا الجهل الذي يكشف كل بؤس علاقتهما به.

لكن جوزيف لم يشعر بالغيظ؛ كان جهلهما يناسبه. منذ أن دفنها، صار يشعر بتوعك المزاج عندما يضطر إلى إخبار أحد بموتها؛ كما لو أنه يخونها على هذا النحو في قرارة نفسه. وبسكوته عن موتها، كان لديه إحساس دوماً بأنه يحميها.

لأن المرأة الميتة هي امرأة دون مقاومة؛ لم يعد لديها سلطة، لم يعد لديها نفوذ؛ ولم يعد أحد يحترم رغباتها ولا أذواقها؛ المرأة الميتة لا يمكنها أن ترغب بشيء، أو تطمح إلى أي احترام، أو تدحض أي افتراء. لم يكن قد شعر حيالها قط بتعاطف مؤلم ومعذِّب إلى هذا الحد إلا عندما ماتت.

31

كان جوناس هاليغريمسون (Jonas Hallgrimsson) شاعراً رومانسياً عظيماً وأيضاً مناضلاً عظيماً في سبيل استقلال أيسلندا. جميع القوميات الأوروبية الصغيرة عرفت في القرن التاسع عشر هؤلاء الشعراء الرومانسيين والوطنيين: بيتويفي (Petöfi) في هنغاريا، ميكويكز (Mickiewicz) في بولونيا، بريزيرن (Preseren) في سلوفينيا، ماشا (Macha) في بوهيميا، تشيفتشينكو (Chevtchenko) في أوكرانيا، فرجلاند (Wergeland) في النروج، لونرو (Lönnrot) في فنلندا، وغيرهم. كانت أيسلندا آنذاك مستعمرة دنماركية وكان هاليغريمسون يعيش أعوامه الأخيرة في العاصمة. جميع الشعراء الرومانسيين العظام، إضافة إلى أنهم وطنيون عظماء، كانوا سكّيرين عظماء. ذات يوم، وهو فاقد الوعي من الثمل، سقط هاليغريمسون على الدرج، وكُسِرَتْ ساقه، وأُصيْبَ بالتهاب ومات ودُفن في مقبرة كوبنهاغن. كان ذلك عام 1845. وبعد تسعة وتسعين عاماً، في عام 1944، أُعْلِنَتْ الجمهورية الأيسلندية. منذ ذلك الحين تسارع مجرى الأحداث. في عام 1946، زارت روح الشاعر صناعياً أيسلندياً ثرياً في رُقَادِه، وكاشفته: «منذ مائة عام وعام وهيكلي العظمي يرقد في الغربة، في بلدٍ عدو. ألم تحن اللحظة لكي يعود إلى إيثاكاه الحرة؟»

متباهياً ومتحمساً لهذه الزيارة الليلية، استخرج الصناعي الوطني الهيكل العظمي للشاعر من أرض العدو وحمله إلى أيسلندا، حالماً بدفنه في الوادي الجميل الذي وُلِدَ فيه الشاعر، لكن لم يستطع أحد إيقاف مجرى الأحداث المجنون: في مشهد فائق الجمال في ثانغفيلير (المكان المقدس الذي كان يجتمع فيه أول برلمان أيسلندي منذ ألف عام تحت السماء)، أسس وزراء الجمهورية الوليدة مقبرة لرجال الوطن العظام؛ اختطفوا الشاعر من الصناعي ودفنوه في مقبرة عظماء الأمة التي لم تكن تضم في ذلك الحين إلا قبر شاعر آخر عظيم (الأمم الصغيرة تغصّ بالشعراء العظام)، إينار بينيدكتسون (Einar Benediktsson).

لكن الأحداث تسارعت أيضاً وما لبثت الناس أن علمت بما كان الصناعي الوطني يخجل من البوح به: وهو واقف أمام القبر المفتوح في كوبنهاغن، شعر بالارتباك الشديد؛ فالشاعر دُفِن بين الفقراء وقبره لا يحمل أي اسم، فقط رقم، والصناعي الوطني، إزاء الهياكل العظمية المختلطة بعضها ببعض، لم يعرف أيها يختار. وبحضور بيروقراطييّ المقبرة المتجهمين ونافدي الصبر، لم يتجرأ على إظهار تردده. لذلك لم يحمل إلى أيسلندا الشاعر الأيسلندي إنما حمل جزاراً دنماركياً.

في أيسلندا، أرادوا في البداية الحفاظ على سرية هذا الخطأ الهزلي على نحو محزن، لكن الأحداث تابعت مجراها

وفي عام 1948 باح الفضولي هالدور لاكسنيس (Halldor Laxness) بالسر في رواية. ما العمل؟ السكوت. الهيكل العظمي لهاليغريمسون ما زال يرقد إذاً على بعد ألفي كيلومتر من إيثاكا، في البلد العدو، بينما جسد الجزار الدنماركي، الذي كان وطنياً أيضاً دون أن يكون شاعراً، وجد نفسه منفياً إلى جزيرة جليدية لم تُوقِظْ فيه قطّ إلا الخوف والاشمئزاز.

رغم الحفاظ على سريتها، تَمَخَّضَ عن الحقيقة بالنتيجة أنه لم يُدْفَن أحد بعد في مقبرة ثانغفيلير التي لا تأوي سوى نعشين، وعلى هذا النحو، من بين جميع مقابر العظماء في العالم، تلك المتاحف المضحكة للكبرياء، أصبحت المقبرة الوحيدة القادرة على التأثير فينا.

كانت زوجة جوزيف قد روت له، منذ زمن طويل جداً هذه القصة؛ وكانت تبدو لهما ساخرة ودرساً أخلاقياً من السهل التحرر منه: لا أحد يهمه أين توجد عظام ميت.

مع ذلك غَيَّرَ جوزيف رأيه عندما صار موت زوجته قريباً ومحتماً. وعلى الفور، بدت له قصة الجزار الدنماركي المحمول بالقوة إلى أيسلندا غير ساخرة إنما مرعبة.

32

أن يموت في الوقت نفسه معها، كانت هذه الفكرة تجذبه. لم تكن معزوة إلى مبالغة رومانسية، إنما إلى تفكير

عقلاني: كان قد قرَّر أنه في حال إصابة زوجته بمرض قاتل سيضع حداً لألمها؛ ولكي لا يُتَّهَم بجريمة قتل، كان ينوي أن يموت هو أيضاً. ثم سقطت مريضة، مريضة بشدة، ولم يعد جوزيف يفكر بالانتحار. ليس خوفاً على حياته. إنما لأنه لم يُطِقْ فكرة أن يترك هذا الجسد الأثير جداً تحت رحمة أيدٍ غريبة. إن مات هو، من سيحمي الميتة؟ كيف لجثة أن تدافع عن أخرى؟

قديماً، في بوهيميا، كان قد شهد احتضار أمه؛ كان يحبها حباً جماً؛ لكنها منذ اللحظة التي لم تعد فيها على قيد الحياة، لم يعد جسدها يهمه؛ بالنسبة له لم تعد جثتها هي. فضلاً عن ذلك، كان طبيبان، أبوه وأخوه، يعتنيان بالمحتضرة وهو، بحسب ترتيب الأهمية، لم يكن إلا الثالث في العائلة. هذه المرة كان كل شيء مختلفاً: فالمرأة التي يراها تُحتضر لا تخصّ أحداً إلا هو؛ كان يغار على جسدها ويريد أن يسهر على مصيره بعد الوفاة. وحتى كان يجب عليه أن يؤنب نفسه: كانت لا تزال حية، ممدَّدة أمامه، تكلمه، بينما حسِبَها للتو ميتة؛ كانت تنظر إليه، وعيناها أوسع مما كانتا عليه في أي وقت مضى، بينما كان يشغل ذهنه بنعشها وقبرها. كان يؤنب نفسه على ذلك كأنه خيانة فضائحية، نفاد صبر، رغبة سرية بتعجيل موتها. لكن لم يكن يسعه شيء حيال ذلك: كان يعرف أن عائلتها ستأتي بعد الوفاة للمطالبة بها من أجل مدفن العائلة، وكانت هذه الفكرة ترعبه.

مُسْتَخِفَّيْنِ بالهموم الجنائزية، كانا قد مرّرا قديماً، بلامبالاة فائقة، وصيتهما؛ كانت التعليمات المتعلقة بثروتيهما أبسط ما يمكن وتلك المتعلقة بالدفن، لم يأتيا حتى على ذكرها. هذا الإهمال عَذَّبَه حين كانت تموت، لكن بما أنه كان يريد إقناعها أنها ستهزم الموت اضطر للسكوت. كيف يعترف للبائسة التي ما زالت تعتقد بشفائها، كيف يعترف لها بما كان يفكر فيه؟ كيف يتكلم عن الوصية؟ خاصة أنها كانت تغرق في هذيانات وأفكارها تتشوش.

عائلة زوجته، عائلة كبيرة نافذة، لم تكن قد أحبّت جوزيف قط. كان يبدو له أن المعركة التي ستنشب حول جسد زوجته ستكون أقسى وأهم من أي معركة قد يخوضها. كانت فكرة أنه يمكن لهذا الجسد أن يدفن في اختلاط داعر مع أجساد غريبة، ولامبالية، غير محتملة بالنسبة له، مثل فكرة أنه هو نفسه، حين يموت، سيجد نفسه في مكان ما، بالتأكيد، بعيداً عنها. كان السماح بذلك يبدو له هزيمة نكراء كالأبدية، هزيمة لا تُغْتَفَر أبداً.

حدث ما كان يخافه. لم يستطع تجنب الصدام. صرخت حماته فيه «إنها ابنتي! إنها ابنتي!» واضطر إلى توكيل محامٍ، والتخلي عن مبلغ ضخم ليُهَدِّئ الأسرة، وأن يشتري بسرعَة مكاناً في المقبرة، وأن يتصرف أسرع من الآخرين ليربح المعركة الأخيرة.

النشاط المحموم لأسبوع دون رقاد منعه من المعاناة،

لكنه حدث شيء أكثر غرابة أيضاً: عندما كان عند القبر الذي أصبح لهما (قبر لاثنين، مثل عربة لاثنين)، لمح في ظلمة حزنه شعاعاً، لا يكاد يُرَى، يرتعش، شعاعاً باهتاً من السعادة. سعادة لأنه لم يُخَيِّب أمل محبوبته، لأنه أَمَّن، لها وله، مستقبلهما.

33

قبل برهة، كانت متلاشية في الأزرق المشع! كانت أثيرية، وقد استحالت إلى ضياء!

ثم فجأة، اسودّت السماء. وهي، بعد أن سقطت من جديد على الأرض عادت ثانية لتصبح مادة ثقيلة وكئيبة. وهي لا تكاد تدرك ما جرى، لم تستطع أن تحيد بنظرها عن أعلى: كانت السماء سوداء، سوداء على نحو شرس.

كان جزء من جسدها يرتجف برداً، والآخر فاقد الحس. هذا أرعَبها. نهضت. وبعد بضع ثوانٍ مديدة تذكرت: فندق في الجبل؛ زملاء الثانوية. وهي مشوشة، وجسدها يرتعش، بحثت عن الدرب. وفي الفندق، استدعوا سيارة إسعاف نقلتها.

خلال الأيام التالية، على سريرها في المشفى، شعرت بألم فظيع في أصابعها وأذنيها وأنفها الذين لم تكن تحس بهم

في البداية. هَدَّأَها الأطباء، لكن ممرضة استمتعت بإخبارها عن جميع النتائج المعروفة عن التجمّد: قد ينتهي الأمر إلى بتر الأصابع. مصعوقة من الرعب، تخيلت ساطوراً؛ ساطور جراح، ساطور جزار؛ تخيلت يدها دون أصابع والأصابع المقطوعة موضوعة قربها على طاولة العمليات، على مرأى منها. في المساء، أحضروا لها على الوجبة لحماً. لم تستطع أن تأكل. تخيلت في الصحن قطعاً من لحم جسدها.

عادت أصابعها من جديد، بألم، إلى الحياة، لكن أذنها اليسرى أصبحت سوداء. الجراح العجوز، الحزين، الحنون، جلس على سريرها ليخبرها بالبتر. صرخت. أذنها اليسرى! أذنها! يا إلهي، صرخت. وجهها، وجهها الجميل، بأذن مقطوعة! لم يستطع أحد تهدئتها.

أوه، كيف حدث كل شيء على عكس ما أرادت! كانت قد فكرت أن تصبح خلوداً يلغي كل مستقبل، وبدلاً من ذلك كان المستقبل من جديد هناك، عنيداً، قبيحاً، منفراً، كأفعى تتلوى أمامها، تَحْتَكُّ بساقيها وتتقدم زاحفة لتدلّها على الدرب.

في الثانوية، انتشر الخبر أنها تاهت وعادت مغطاة بالجليد. لاموا المتمردة التي رغم البرنامج الإلزامي، راحت تتسكع بحماقة، دون أن يكون لديها معرفة أولية بالاتجاهات للعودة إلى الفندق، المرئي مع ذلك من بعيد.

عند عودتها إلى المنزل، رفضت الخروج إلى الطريق.

ارتعبت من مصادفة الناس الذين تعرفهم. أبواها اليائسان رَتَّبا أمر انتقالها الرزين إلى ثانوية أخرى، في مدينة مجاورة.

أوه، كيف حدث كل شيء على عكس ما أرادت! كانت قد حلمت بالموت بالتجمد على الثلج، على نحو غامض. كانت قد بذلت ما بوسعها حتى لا يستطيع أحد أن يعرف إن كان موتها حادثاً أو انتحاراً. أرادت أن ترسل له موتها كعلامة سرية، علامة حب قادمة من العالم الآخر، وحده من يمكنه فهمها. كانت قد احتاطت لكل شيء، ربما ما عدا عدد الحبوب المنومة، وربما ما عدا درجة الحرارة، التي كانت ترتفع بينما هي تغفو. كانت قد حسبت أن التجمد سيغمرها بالرقاد والموت، لكن الرقاد كان أخفّ مما ينبغي، كانت قد فتحت عينيها ورأت السماء السوداء.

كانت السماءان قد شطرتا حياتها إلى جزأين: السماء الزرقاء، والسماء السوداء. وتحت هذه السماء الأخيرة ستمشي إلى موتها، إلى موتها الحقيقي، الموت البعيد والمبتذل بالشيخوخة.

وهو؟ كان يعيش تحت سماء لم تكن موجودة بالنسبة لها. لم يعد يبحث عنها، وهي لم تعد تبحث عنه. لم تكن ذكراه توقظ فيها لا الحب ولا الكره. وحين يخطر ببالها، تكون كالمخدرة، بلا أفكار ولا انفعالات.

34

لنقل إن الحياة الإنسانية تمتدّ لثمانين عاماً. تقريباً لهذه المدة يتخيل كل واحد حياته وينظمها. ما قلته للتو، جميع الناس يعرفونه، لكن نادراً ما يدركون أنّ عدد السنوات التي مُنِحَت لنا ليست مجرد معطى كمي، وصفة خارجية (مثل طول الأنف أو لون العينين)، لكنها جزء من تعريف الإنسان ذاته: فمَن سيسعه العيش، بكل قوته، ضعفي هذا الزمن، أي لنقل مئة وستين عاماً، لن ينتمي إلى نوعنا ذاته. لن يعود شيء يشبه حياته، لا الحب، ولا الطموحات، ولا المشاعر، ولا الحنين، ولا شيء. ولو عاد مهاجر، بعد عشرين عاماً عاشها في الغربة، إلى وطنه الأم وما زال أمامه أيضاً مئة عام من الحياة، لما شعر بانفعال العودة العظيمة، وعلى الأرجح لما كانت بالنسبة له عودة، إنما فقط واحدة من الجولات العديدة في مسيرة وجوده الطويلة.

لأنه حتى مفهوم الوطن، بالمعنى النبيل والعاطفي للكلمة، مُرتبطٌ بالقصر النسبي لحياتنا التي تزودنا بأقل مما ينبغي من الوقت للارتباط ببلد آخر، ببلدان أخرى، بلغات أخرى.

العلاقات الشهوانية يمكن أن تملأ حياة الرشد كلها، لكن لو كانت هذه الحياة أطول بكثير، أما كان التعب سيخنق طاقة الإثارة قبل زمن طويل من أفول القوى الجسدية؟ لأن ثمة

فرق شاسع بين الجماع الأول والعاشر والمئة والألف أو العشرة آلاف. أين يوجد الحدّ الذي سيصبح بعده التكرار مقولباً، أو هزلياً إن لم يكن مستحيلاً؟ وعند اختراق هذا الحد، ماذا ستغدو العلاقة الغرامية بين رجل وامرأة؟ هل ستختفي؟ أم، على العكس، سيعتبر الحبيبان المرحلة الجنسية من حياتهما كمرحلة ما قبل تاريخية بربرية لحب حقيقي؟ الإجابة عن هذه الأسئلة سهلة مثل تخيل سيكولوجية سكان كوكب مجهول.

مفهوم الحب (الحب العظيم، الحب الوحيد) وُلِدَ هو أيضاً، على الأرجح، من الحدود الضيقة للزمن الذي مُنِحَ لنا. لو كان هذا الزمن دون حدود، هل كان لجوزيف أن يتعلق إلى هذه الدرجة بزوجته المتوفاة؟ نحن الذين يجب علينا أن نموت باكراً، لا نعرف شيئاً عن ذلك.

35

الذاكرة، هي أيضاً، لا يمكن فهمها دون مقاربة رياضية. المُعطى الأساسي، هو العلاقة الرقمية بين زمن الحياة المعاشة وزمن الحياة المخزَّنة في الذاكرة. لم يحاول أحد قط أن يحسب هذه العلاقة، ولا توجد فضلاً عن ذلك أية وسيلة تقنية للقيام بها؛ مع هذا، ودون مجازفة كبيرة بالخطأ، يمكنني أن أفترض أنّ الذاكرة لا تحتفظ إلا بجزء من مليون، جزء من

مليار، باختصار، بجزء في غاية الضآلة من الحياة المُعاشة. هذا أيضاً يدخل في عداد جوهر الإنسان. لو كان بوسع أحد أن يحتفظ في ذاكرته بكل ما عاشه، لو كان بوسعه أن يتذكر في أية لحظة أي جزء من ماضيه، لما كان من البشر. فلا غرامياته ولا صداقاته ولا غضباته ولا استعداده للغفران أو الثأر سيشبهون ما لدينا.

لن ننتهي أبداً من نقد أولئك الذين يشوهون الماضي، ويعيدون كتابته، ويُحَرِّفُونه، الذين يضخِّمون أهمية حدث ويسكتون عن آخر؛ هذه الانتقادات صحيحة (لا يمكن أن تكون إلا كذلك) لكن ليس لها أهمية كبيرة إذا لم يسبقها نقد أولي: نقد الذاكرة الإنسانية بوصفها كذلك. لأنه ماذا يسعها جدياً، المسكينة؟ ليست قادرة أن تحتفظ من الماضي إلا بجزء صغير بائس دون أن يعرف أحد لماذا بالضبط هذا الجزء وليس آخر، لماذا هذا الاختيار لدى كل واحد منا، يحدث بغموض خارج إرادتنا ومصالحنا. لن نفهم شيئاً في الحياة الإنسانية حين نواظب على إخفاء أولى البديهيات: إن واقعاً كما كان عندما كان لم يعد موجوداً؛ واستعادته مستحيلة.

حتى الأرشيفات الأكثر غنى لا يسعها شيء حيال ذلك. لنتأمل مذكرات جوزيف القديمة كجزء من أرشيف يحتفظ بملاحظات شاهد صادق على الماضي؛ الملاحظات تتحدث عن أحداث لا يوجد سبب لمؤلفها حتى ينكرها، لكن لا يمكن لذاكرته أن تؤكدها أيضاً. من كل ما ترويه المذكرات،

تفصيل وحيد أشعل ذكرى واضحة وبالتأكيد دقيقة: رأى نفسه على درب الغابة يروي لطالبة الثانوية كذبة انتقاله إلى براغ؛ هذا المشهد القصي، وبدقة أكثر، ظل هذا المشهد (لأنه لا يتذكر إلا المعنى العام لحديثه وواقعة أنه كذب) هو الجزء الوحيد من حياته الناعسة الذي بقي مخزوناً في ذاكرته، لكنه معزول عمّا سبقه وعما تلاه: بأي قول وأي فعل أثارته طالبة الثانوية لاختلاق هذه الأكذوبة؟ وماذا حدث في الأيام التالية؟ كم من الزمن استمر في خداعه؟ وكيف تخلص من ذلك؟

لو أراد أن يروي هذه الذكرى كحكاية صغيرة ذات معنى، لاضطر إلى أن يُدْرِج فيها سلسلة سببية من الأحداث الأخرى، من الأفعال الأخرى والكلمات الأخرى؛ وما دام نسيها، لن يبقى له إلا أن يختلقها: ليس بهدف الغش، إنما ليجعل الذكرى معقولة؛ فضلاً عن أن هذا ما فعله لنفسه عفوياً عندما كان لا يزال منكباً فوق صفحات المذكرات:

كان السوقي ساخطاً لعدم وجود أي مظهر للنشوة في حب الطالبة الثانوية؛ عندما كان يلمس مؤخرتها، كانت تزيح يده؛ وحتى يعاقبها، قال لها أنه سينتقل إلى براغ؛ وهي حزينة، استسلمت للّمس وأعلنت أنها تتفهم الشعراء الذين يظلون أوفياء حتى الممات؛ كل شيء حدث إذاً في سبيل متعة أكبر له، ما عدا أن الفتاة بعد أسبوع أو اثنين استنتجت من الانتقال المبرمج لصديقها أن عليها أن تستبدله في الوقت المناسب بآخر؛ وأخذت تبحث عنه، فخمّن السوقي ذلك ولم

يستطع كبح غيرته؛ وبحجة الإقامة في الجبل حيث كان عليها الذهاب دونه، مَثَّلَ عليها مشهد الهستيريا، فجعل نفسه مثاراً للسخرية؛ وتركته.

مهما تاق ليكون أكثر قرباً من الحقيقة، لم يكن بوسع جوزيف أن يزعم أن حكايته مطابقة لما عاشه حقاً؛ كان يعرف أن ذلك ليس سوى تمويهاً محتملاً للنسيان.

أتخيل انفعال كائنين يلتقيان من جديد بعد سنوات. فيما مضى، تآلفا ويعتقدان إذاً أنهما مرتبطان بالتجربة ذاتها والذكريات ذاتها. الذكريات ذاتها؟ هنا يبدأ سوء الفهم: ليس لديهما الذكريات ذاتها؛ كلاهما يحتفظان من لقاءاتهما بموقفين أو ثلاثة، لكن لكل واحد منهما مواقفه؛ ذكرياتهما لا تتشابه، لا تتقاطع؛ وحتى كمياً، لا تُقَارَن: أحدهما يتذكر عن الآخر أكثر ممّا يتذكر الآخر عنه؛ أولاً لأن قدرة الذاكرة تختلف من شخص لآخر (وهو ما قد يكون أيضاً تفسيراً مقبولاً بالنسبة إلى كل واحد منهما) لكن أيضاً (وهذا أصعب على القبول) لأن كل واحد منهما ليس له الأهمية ذاتها بالنسبة إلى الآخر. عندما شاهدت إيرينا جوزيف في المطار، كانت تتذكر كل تفصيل عن مغامرتهما الماضية، وجوزيف لم يكن يتذكر شيئاً. منذ الثانية الأولى، كان لقاؤهما يقوم على لامساواة ظالمة ومثيرة للسخط.

36

حين يعيش كائنان إنسانيان في الشقة ذاتها، ويريان بعضهما في جميع الأيام، وفوق ذلك، يحب أحدهما الآخر، فإن أحاديثهما اليومية تَضْبِطُ ذاكرتيهما: برضى ضمني ولاشعوري، يهملان في النسيان مناطق واسعة من حياتهما ويتحدثان من جديد عن الأحداث ذاتها التي يحيكون منها الحكاية ذاتها، التي تهمس، كنسمة في أغصان الشجر، فوق رأسيهما وتذكرهما دوماً أنهما عاشا سوية.

عندما مات مارتن، حمل تيار الهموم إيرينا بعيداً عنه وعن أولئك الذين كانوا يعرفونه. اختفى من الأحاديث، وحتى ابنتاها اللتان كانتا صغيرتين جداً عندما كان حياً، لم تعودا تهتمان به. وذات يوم، صادَفَتْ غوستاف الذي، في سبيل أن يتمكن من إطالة محادثتهما، اعترف لها بأنه يعرف زوجها. تلك هي المرة الأخيرة التي كان مارتن معها قوياً ومهماً ونافذاً، مستخدمة إياه كجسر نحو عشيقها القادم. وبعد أن أنجز هذه المهمة، اندثر إلى الأبد.

منذ زمن طويل في براغ، يوم زواجهما، أسكن مارتن إيرينا في فيللاه؛ كان لديه مكتبه ومكتبة في الطابق الأول، واحتفظ بالطابق الأول لحياته الزوجية وحياته كأب؛ وقبل مغادرته إلى فرنسا، تنازل عن الفيللا لحماته التي قدَّمت بعد عشرين عاماً الطابق الأول إلى غوستاف بعد أن جددت أثاثه

تماماً في تلك الأثناء. وعندما جاءت ميلادا لترى إيرينا فيها، تذكرت زميلها القديم: «هنا، عَمِلَ مارتن» قالت حالمة. مع ذلك، لم يتبدَّ أي ظل لمارتن بعد هذه الكلمات. كان قد فارق المنزل منذ زمن طويل، هو وجميع ظلاله.

بعد موت زوجته، اكتشف جوزيف أنه من دون أحاديثهما اليومية، راح هَمْسُ حياتهما الماضية يتضاءل. ولكي يقويه، أجهد نفسه على إعادة إحياء صورة زوجته، لكن ضعف النتيجة آلمه. كانت لها نحو عشرة ابتسامات مختلفة. أرغم مخيلته على إعادة رسمهم. أخفق. كانت لديها موهبة الإجابات الفكاهية والسريعة التي تدهشه. لم يستطع تذكُّر أي منها. وذات يوم، تساءل: لو جمع هذا النذر اليسير الذي تبقى من حياتهما المشتركة، كم من الزمن سيستغرق؟ دقيقة؟ دقيقتان؟ هذا أيضاً لغز آخر للذاكرة أساسي أكثر من جميع الألغاز الأخرى: هل للذكريات حجم زمني قابل للقياس؟ هل تحدث في مدة زمنية؟ يريد أن يتصور لقاءهما الأول: يرى درجاً ينزل من الرصيف إلى حانة جعة في قبو؛ يرى أزواجاً منعزلين في نور خافت أصفر، ويراها، زوجة المستقبل، جالسة في مقابله، وكأس عرق في يدها، ونظرتها مركزة عليه مع ابتسامة خجولة. خلال دقائق مديدة يراقبها تمسك الكأس وتبتسم، يتفحص هذا الوجه وهذه اليد، وستبقى طيلة هذا الزمن ساكنة، لن ترفع الكأس إلى فمها، ولن تغير شيئاً في ابتسامتها. وهنا يكمن الرعب: الماضي الذي يتذكره محروم

من الزمن. من المستحيل إحياء حب مثل إعادة قراءة كتاب أو مثل إعادة مشاهدة فيلم. بمجرد موتها، لم يعد لزوجة جوزيف أي بُعد، لا مادي ولا زمني.

لذلك سرعان ما ستغدو جهود إحيائها في ذهنه تعذيباً. وبدل أن يستمتع بإعادة اكتشاف هذه اللحظة المنسية أو تلك، كان يائساً من اتساع الفراغ الذي أُحِيْطَت به هذه اللحظة. ذات يوم، امتنع عن التجوال المؤلم في أروقة الماضي ووضع حداً للمحاولات العابثة لإعادة استيلادها مثلما كانت. وحتى قال في سره أنه بهذا التركيز على حياته الماضية، كان يقصيها غدراً إلى متحف الأشياء المهملة وينفيها من حياته الحالية.

فضلاً عن ذلك، لم يلوذا قط بتعبّد الذكريات، وبالتأكيد لم يمزقا رسائلهما الحميمة ولا المفكرات التي دوَّنا فيها واجباتهما ولقاءاتهما، لكن فكرة إعادة قراءتهم لم تخطر ببالهما قط. لذلك قرر أن يعيش مع الميتة كما عاش مع الحية. لن يعود إلى قبرها ليتذكرها، لكن ليكون معها؛ ليرى عينيها اللتين تنظران إليه، واللتين تنظران إليه ليس من الماضي، إنما من اللحظة الحاضرة.

إذاً، بدأت حياة جديدة بالنسبة له: التساكن مع الميتة. أخذت ساعة حائط جديدة تنظم وقته. هي المولعة بالنظافة، كانت تغتاظ بسبب الفوضى التي يتركها في كل مكان. من الآن فصاعداً، ينظف البيت لوحده، بعناية. لأنه يحب منزلهما أيضاً أكثر من حياته: السور الخشبي الواطئ ذو الباب الصغير؛

الحديقة؛ شجرة الصنوبر أمام المنزل المبني بالقرميد الأحمر الغامق؛ الكرسيان، أحدهما مقابل للآخر، حيث كانا يجلسان بعد أن يعودا من العمل، حافة النافذة حيث كانت تحتفظ دوماً بوعاء أزهار من جهة وبمصباح في الجهة الأخرى: هذا المصباح، كانا يتركانه مضاءً خلال غيابهما كي يلمحانه من بعيد في الطريق عند عودتهما إلى المنزل. يحترم كل هذه العادات ويحرص على كل كرسي، وعلى كل مزهرية أن تكون هناك حيث كانت تحب أن تضعها.

يعود إلى زيارة الأمكنة التي أحباها: المطعم على شاطئ البحر حيث لا ينسى صاحبه أبداً أن يذكره بالأسماك المفضلة لزوجته؛ وفي مدينة صغيرة مجاورة، الساحة المستطيلة بمنازل مطلية بالأحمر والأزرق والأصفر، ذات جمال متواضع كان يسحرهما؛ أو في زيارة كوبنهاغن، الرصيف الذي تبحر منه كل يوم في الساعة السادسة مساء باخرة كبيرة بيضاء. هناك، كانا يستطيعان أن يبقيا ساكنين لدقائق طويلة لمشاهدتها. قبل مغادرتها، كانت الموسيقى، موسيقى الجاز القديمة تصدح داعية للسفر. منذ موتها، غالباً ما يذهب إلى هناك، يتخيلها إلى جانبه ويشعر برغبتهما المشتركة للإبحار على هذه السفينة الليلية البيضاء، والرقص عليها، والنوم فيها والاستيقاظ في مكان ما، بعيداً، بعيداً جداً في الشمال.

كانت تريده أنيقاً وتهتم هي نفسها بملابسه. لم ينسَ أي قميص من قمصانه كانت تفضل، وأي قميص لم تكن تحب.

ولأجل هذه الإقامة في بوهيميا، ارتدى عمداً بزة لم تكن تبالي بها. لم يرغب أن يعطي انتباهاً بالغاً لهذه الرحلة. فهي ليست رحلة لأجلها، ولا معها.

37

منتظرة موعدها في اليوم التالي، تريد إيرينا أن تمضي هذا السبت بهدوء، مثل رياضية في أمسية مباراة. غوستاف في المدينة سيكون لديه غداء عمل، وحتى هذا المساء لن يكون في المنزل. تستفيد من وحدتها وتنام طويلاً وتبقى بعد ذلك في بيتها، محاولة ألا تصادِف أمها؛ من الطابق، تسمع غدوها ورواحها الذي انتهى قبيل الظهر. صَفْقَةُ بابٍ قوية ترن أخيراً، وتتأكد أن أمها خرجت، عندها تنزل، تأكل شيئاً ما وهي شاردة في المطبخ وتنطلق أيضاً.

وعلى الرصيف، تتوقف، مفتونة. تحت شمس الخريف، يكشف هذا الحي ذو الحدائق المنتشرة حول الفلل الصغير عن جمال رصين يشدّها إليه ويدعوها إلى نزهة طويلة. تتذكر أنها رغبت بمثل هذه النزهة، الطويلة والتأملية، في الأيام الأخيرة التي سبقت هجرتها، لكي تودِّع هذه المدينة وجميع الشوارع التي أحبتها؛ لكنها انشغلت بترتيب الكثير من الأمور ولم يسنح لها الوقت لذلك.

وهي تراها من مكان تسكّعها، تبدو براغ وشاحاً أخضر

عريضاً من الأحياء الوادعة، بطرقات صغيرة موتَّدة بالأشجار، هذه هي براغ التي تعلَّقت بها، وليست تلك، الباذخة، في المركز؛ في براغ هذه وُلِدَتْ نحو نهاية القرن الماضي، براغ البرجوازية الصغيرة التشيكية، براغ طفولتها التي كانت تتزلج شتاءً في أزقتها الصاعدة والهابطة، براغ المحاطة بالغابات التي تتغلغل فيها سراً عند الغسق لتنثر عطرها.

تمشي حالمة، وخلال بضعة ثوانٍ تتذكر باريس التي تبدو لها لأول مرة عدائية: هندسة باردة للجادّات؛ زَهْوٌ بالشانزليزيه؛ وجوه عابسة لنساء عملاقات من الحجر يجسدن المساواة أو الأخوة؛ لا مكان فيها؛ ولا أي مكان؛ للمسة واحدة من هذه الحميمية المحببة، لنفحة واحدة من هذه البراءة التي تستنشقها هنا. فضلاً عن ذلك، خلال فترة هجرتها، هذه هي الصورة التي احتفظت بها كشعار لبلدها المفقود: منازل كثيرة في الحدائق تنتشر على مدّ البصر فوق أرض كثيرة الأودية. شعرت بنفسها سعيدة في باريس، أكثر من هنا، لكن علاقة سرية بالجمال لم تكن تربطها إلا ببراغ. تدرك فجأة مقدار حبها لهذا المدينة وكم كان رحيلها عن هنا مؤلماً.

تتذكر تلك الأيام الأخيرة المحمومة: في فوضى الأشهر الأولى للاحتلال، كانت مغادرة البلاد لا تزال سهلة وكان بوسعهم أن يودّعوا أصدقائهم دون خوف، لكن كان لديهم أقل ما ينبغي من الوقت لرؤيتهم جميعاً. وبتأثير اللحظة، زاروا قبل يومين من رحيلهم صديقاً قديماً عازباً، وأمضوا معه بضع

ساعات مؤثرة. وفقط فيما بعد، في فرنسا، علموا أن هذا الرجل حين كان يُظْهِر لهم منذ زمن طويل مثل هذا الاهتمام الفائق، فلأنه اختير من الشرطة للتجسس على مارتن. عشية رحيلهم، ودون سابق إنذار، طرقت باب صديقتها، فاجأتها في ذروة نقاشها مع امرأة أخرى. ودون أن تتفوه بكلمة، شهدت لفترة مديدة محادثة لم تكن تعنيها، منتظرة إيماءة، أو عبارة تشجيع، أو كلمة وداع؛ دون جدوى. هل نسِيَتا أنها سترحل؟ أم تظاهرتا بنسيان ذلك؟ أم أن حضورها أو غيابها لم يعد يهمهما؟ وأمها، في لحظة الرحيل، لم تعانقها. عانقت مارتن وليس هي. وبالنسبة إلى إيرينا، شدّت بقوة على كتفها، قائلة بصوتها الرنان: «نحن لا نحب التفاخر بعواطفنا!» كان يُرَاد لهذه الكلمات أن تكون حارّة على نحو رجولي، لكنها كانت جليدية. تقول في سرها وهي تتذكر الآن كل تلك الوداعات (الوداعات الزائفة والوداعات المصطنعة): من أخفق في وداعاته لا يمكنه أن ينتظر شيئاً ذا أهمية من لقاءاته اللاحقة.

منذ ساعتين أو ثلاث ساعات تمشي في هذه الأحياء الخضراء. تصل إلى حاجز يُسَوِّر حديقة صغيرة في أعلى براغ: من هنا، يبدو الحصن من الخلف، من الجانب السري؛ هذه هي براغ التي لا يخطر وجودها على بال غوستاف؛ وعلى الفور، تهرع نحوها الأسماء التي كانت، وهي فتاة شابة، أثيرة لديها: ماشا، شاعر الزمن الذي كانت فيه أمتها تخرج، مثل حورية، من الضباب؛ نيرودا، مؤلف حكايا الشعب التشيكي

البسيط؛ أغاني فوسكوفيك وفيريتش، من سنوات الثلاثينيات، التي كان والدها، الذي مات وهي طفلة، يحبها كثيراً؛ هرابال وسكفوريكي، روائيان من مراهقتها؛ والمسارح الصغيرة وكاباريهات الستينيات، الفائقة الحرية بمرح مع دعاباتها الوقحة؛ كان هذا هو العطر السري لهذا البلد، جوهره اللامادي الذي حملته معها إلى فرنسا.

مستندة إلى السياج، تنظر نحو الحصن: للوصول إليه تكفيها ربع ساعة. وهناك تبدأ براغ البطاقات البريدية، براغ التي طَبَعَ عليها التاريخ الهائج ندوباً متعددة، براغ السياح والعاهرات؛ براغ المطاعم الغالية إلى درجة أن أصدقاءها التشيكيين لا يستطيعون أن يطؤوها بأقدامهم، براغ الراقصة وهي تتلوى تحت الأضواء الكاشفة، براغ غوستاف. تقول في سرها إنه لا يوجد بالنسبة لها مكان أكثر غربة من براغ تلك. أرض غوستاف. مدينة غوستاف. بلدة غوستاف. قرية غوستاف.

غوستاف: تراه، ملامحه ممسوحة خلف الزجاج العاتم للغة لا تعرفها، وتقول في سرها، شبه مستمتعة، إن الأمر أفضل على هذا النحو لأن الحقيقة بانت أخيراً: لا تشعر بأي حاجة لتفهمه أو لتجعله يفهمها. تراه فرحاً، مرتدياً قميصاً، يصرخ أن كافكا ولد في براغ، وتشعر برغبة تجتاح جسدها، رغبة جامحة لامتلاك عشيق. ليس لترميم حياتها وإعادتها كما كانت. إنما لِقَلْبِها رأساً على عقب. لتمتلك أخيراً قدرها الخاص.

لأنها لم تختر قط أي رجل. إنما هي دوماً التي كانت مُخْتَارَة. انتهت أخيراً لتحب مارتن، لكنه لم يكن في البداية إلا فرصة للفرار من أمها. في مغامرتها مع غوستاف، كانت تظن أنها وجدت الحرية. لكنها تدرك اليوم أنها لم تكن إلا تنويعاً لعلاقتها مع مارتن: أَمْسَكَتْ يداً ممدودة أخرجتها من ظروف قاسية لم تكن قادرة على تحملها.

تعرف أنها منذورة للامتنان؛ وتفاخرت به دوماً كأنه فضيلتها الأولى؛ عندما كان الامتنان يأمرها، كان شعور الحب يهرع كخادمة مطيعة. كانت مخلصة بصدق لمارتن، وكانت كذلك لغوستاف. لكن هل يوجد ما يدعو للتباهي؟ أليس الامتنان هو مجرد اسم آخر للضعف والتبعية، ما ترغب به من الآن فصاعداً هو الحب دون أي امتنان! وتعرف أن مثل هذا الحب، يجب أن تدلل عليه بفعل جريء ومجازف. لأنها في حياتها الغرامية لم تكن قط جريئة، وحتى لم تكن تعرف ما يعنيه ذلك.

فجأة، وكما لو أنها هَبَّةُ ريح: تَتَابُعٌ مُتَسَارِعٌ لأحلام الهجرة القديمة والهموم القديمة: ترى نساءً يظهرن فجأة، يُحِطْنَ بها، وهن يرْفَعْن أكواب البيرة، ضاحكات بخبث، يمنعنها من الهرب؛ ها هي في حانوت توجد فيه نساء أخريات، بائعات، ينقضضن عليها، يُلبسنها ثوباً يتحول على جسدها إلى قميص مجنونة.

تبقى لحظة مديدة متكئة على السياج، ثم تنتصب. ملأها

يقين بأنها ستهرب وأنها لن تبقَ بعد في هذه المدينة، لا في هذه المدينة، ولا في الحياة التي تنسجها الآن لها هذه المدينة.

تمشي وتقول في سرها أنها اليوم تحقق أخيراً نزهة وداعها التي أخفقت بها قديماً؛ تقوم أخيراً بوداعها العظيم للمدينة التي تحبها من بين جميع المدن والتي تستعد لفقدها مرة أخرى أيضاً، دون أسف، لتستحق حياتها الخاصة.

38

عندما غادرت الشيوعية أوروبا، أصرت زوجة جوزيف على ذهابه لرؤية بلده. كانت تريد مرافقته، لكنها ماتت ولم يسعه التفكير مُذَّاك إلا بحياته الجديدة مع الغائبة. كان يرغم نفسه على الاقتناع بأنها حياة سعيدة؟ لكن هل يمكن الحديث عن حياة سعيدة؟ أجل؛ سعادة كانت تخترق، كشعاع باهت مرتعش، ألمه، ألم مذعن وهادئ ومستمر. منذ شهر، وهو غير قادر على الخروج من الحزن، تَذَكَّرَ كلمات زوجته الميتة: «عدم ذهابك سيكون من جانبك غير طبيعي وغير مبرر وحتى قبيح»، في الواقع، يقول في سره، هذه الرحلة التي كانت قد حَثَّتْه عليها كثيراً قد تساعده اليوم؛ وتُحَوِّله إلى بضعة أيام على الأقل عن حياته الخاصة التي لم تنفك تزيده ألماً.

وبينما كان يهيئ نفسه للسفر، خطرت على باله فكرة

بوَجَل: وماذا لو بقي هناك إلى الأبد؟ بعد كل شيء، سيسعه متابعة ممارسة الطب البيطري في بوهيميا كما في الدنمارك. حتى ذلك الحين، كان هذا يبدو له غير مقبول، وتقريباً كخيانة لمن كان يحبها، لكنه تساءل: هل ستكون حقاً خيانة؟ إذا كان حضور زوجته غير مادي، فلماذا ستكون مرتبطة بمادية مكان واحد؟ ألن يسعها أن تكون معه في بوهيميا كما في الدنمارك؟

يغادر الفندق ويتسكع في السيارة، يتغدى في مطعم ريفي؛ ثم يمشي عبر الحقول؛ دروب ضيقة، وورود برية، أشجار، وهو منفعل على نحو غريب، ينظر إلى الهضاب الحراجية في الأفق وتخطر بباله فكرة أنه خلال فترة حياته استعد التشيك مرتين للموت في سبيل أن يبقى هذا المشهد لهم: في عام 1938، أرادوا أن يقاتلوا ضد هتلر؛ عندما منعهم حلفاؤهم الفرنسيون والإنجليز عن ذلك، وشعروا بالإحباط. وفي عام 1968، اجتاح الروس البلد، ومن جديد، أرادوا القتال؛ لكنهم محكومين باتفاقية التسليم ذاتها، سقطوا من جديد في الإحباط ذاته.

الاستعداد لبذل الحياة في سبيل البلد: عرفت جميع الأمم هذا الميل للتضحية. فضلاً عن ذلك، كان خصوم التشيك يعرفونه أيضاً: الألمان والروس. لكنهما شعبان كبيران. وطنيتهم مختلفة: متحمسون لمجدهم وأهميتهم ومهمتهم الكونية. كان التشيك يحبون وطنهم ليس لأنه مجيد وإنما لأنه مجهول؛ ليس لأنه كبير إنما لأنه صغير، وباستمرار

في خطر. كانت وطنيتهم حنواً هائلاً على بلدهم. الدنماركيون يشبهونهم أيضاً. وليست مصادفة أن جوزيف اختار لهجرته بلداً صغيراً.

مُنْفَعِلاً، ينظر إلى المشهد ويقول في سره إن تاريخ بلده بوهيميا خلال النصف قرن الأخيرة مذهل وفريد ومبتكر وأن عدم الاهتمام به سيكون ضيق أفق. غداً صباحاً، سيرى «ن». كيف عاش كل هذا الوقت ولم يرَ أحدهما الآخر خلاله؟ ماذا فكَّر حيال الاحتلال الروسي للبلد؟ وكيف عاش نهاية الشيوعية التي كان يؤمن فيها قديماً بصدق ونزاهة؟ كيف تتصالح نشأته الماركسية مع عودة الرأسمالية المُرَحَّب بها من الكوكب بأكمله؟ هل يثور؟ أم أنه تخلى عن قناعاته؟ وإذا تخلى عنها، هل هي مأساة بالنسبة له؟ وكيف يتصرف الآخرون حياله؟ يسمع صوت زوجة أخيه، صائدة المذنبين، التي تمنت بالتأكيد رؤيته مكبل اليدين أمام المحكمة. هل يحتاج «ن» إلا أن يقول له جوزيف بأن الصداقة موجودة رغم كل تقلبات التاريخ؟

يعود تفكيره إلى زوجة أخيه: كانت تكره الشيوعيين لأنهم كانوا يرفضون حق الملكية المقدس. وبالنسبة لي، قال في سره، رَفَضَتْ حقي المقدس في لوحتي. يتخيل هذه اللوحة على جدارٍ في منزله القرميدي، وفجأة، يدرك مندهشاً أن تلك الضاحية العمالية، وذاك دوران التشيكي، وهذه الغرابة للتاريخ ستكون في منزله مزعجة ودخيلة. كيف خطر له أن يأخذها معه! هناك حيث يعيش مع زوجته الميتة لا مكان لهذه

اللوحة. لم يكلمها قط عنها. لا علاقة لتلك اللوحة بها، بهما، بحياتهما.

ثم يفكر: إذا استطاعت لوحة صغيرة أن تشوش تعايشه مع الميتة، فكم سيكون مُشَوِّشاً الوجود الدائم والمُلح لبلد بأكمله، لبلد لم تره قط!

تميل الشمس نحو الأفق، وهو في السيارة على الطريق إلى براغ؛ المنظر يفرّ من حوله، منظر بلده الصغير الذي كان الناس مستعدين للموت من أجله، ويعرف أنه يوجد شيءٌ ما أصغر أيضاً، يستدعي إضافة عواطفه الشجيّة: يرى كرسيين متقابلين، المصباح وإناء الورود موضوعان على حافة النافذة وشجرة الصنوبر الرشيقة التي زرعتها زوجته أمام المنزل، شجرة صنوبر كذراع ترفعها حتى تدله من بعيد على منزلهما.

39

عندما انزوى سكاسل لثلاثمئة عام في منزل الحزن، كان ذلك لأنه رأى بلده مُبْتَلَعاً إلى الأبد من إمبراطورية الشرق. كان مخطئاً. الجميع يخطئون بشأن المستقبل. لا يمكن للإنسان أن يكون متأكداً إلا من اللحظة الحاضرة. لكن هل هذا صحيح؟ هل يمكنه حقاً أن يعرف الحاضر؟ هل هو قادر أن يحكم عليه؟ بالتأكيد لا. لأنه كيف سيسَع من لا يعرف المستقبل أن يفهم معنى الحاضر؟ إذا لم نعرف نحو أي

مستقبل يقودنا الحاضر، كيف سيسَعنا القول إن هذا الحاضر جيد أو رديء، وأنه يستحق انضمامنا، ريبتنا أو كراهيتنا؟

في عام 1921، يعلن أرلوند شونبرغ أن الموسيقى الألمانية ستبقى بفضله سيدة العالم خلال المائة عام القادمة. بعد اثني عشر عاماً يضطر إلى مغادرة ألمانيا إلى الأبد. وبعد الحرب في أميركا، يظل واثقاً، وهو مفعم بالاعتزاز، أن المجد لن يتخلى أبداً عن أعماله. يلومُ إيغور سترافينسكي على تفكيره المبالغ بمعاصريه وإهماله حكم المستقبل. يعتبر الأجيال القادمة أوثق حلفائه. في رسالة لاذعة إلى توماس مان يستند إلى مرحلة «بعد مئتي عام أو ثلاثمئة عام» التي سَتُظْهِر أخيراً بوضوح أيهما كان أعظم مان أم هو! شونبرغ توفي عام 1951. وخلال العقدين التاليين، لَقِيَتْ أعماله ترحيباً باعتبارها الأعظم في القرن، واحترمها ألمع المؤلفين الموسيقيين الشباب الذين أعلنوا أنهم تلامذته؛ لكنه بعد ذلك يبتعد عن صالات الموسيقى كما عن الذاكرة. من يعزف أعماله الآن، في نهاية القرن؟ من يرجع إليه؟ لا، لا أريد السخرية بحماقة من زهوه والقول إنه كان يبالغ في تقدير ذاته. ألفُ لا! لم يكن شونبرغ يبالغ في تقدير ذاته. كان يبالغ في تقدير المستقبل.

هل ارتكب خطأ في التفكير؟ لا. كان يفكر على نحو صائب، لكنه كان يعيش في أجواء راقية للغاية. كان يتناقش مع أعظم الألمان، مع باخ وغوته وبرامز وماهلر، لكن مهما

كانت هذه النقاشات ذكية، هي الخاضعة لأجواء الروح الراقية، تظل قصيرة النظر حيال ما يجري، بلا سبب ولا منطق، في الأسفل: يتصارع جيشان كبيران حتى الموت في سبيل قضايا مقدسة، لكن بكتيريا الطاعون الصغيرة جداً هي التي تقضي عليهما.

شونبرغ كان يدرك وجود بكتيريا. كتب سابقاً في عام 1930: «الراديو هو عدو، عدو عديم الرحمة يتقدم على نحو لا يُقَاوَم وأية مقاومة ضده هي بلا أمل»، هو «يتخمنا بالموسيقى (. . .) دون أن يتساءل إن كنا نرغب بالإصغاء إليها، وما إذا كانت لدينا إمكانية الاستماع إليها»، بحيث أصبحت الموسيقى مجرد ضجة، ضجة بين الضجيج.

كان الراديو الجدول الصغير الذي به بدأ كل شيء. جاءت بعد ذلك وسائل تقنية أخرى لنسخ ومضاعفة وزيادة الصوت، وأصبح الجدول نهراً هائلاً. وإذا الناس يصغون فيما مضى للموسيقى حباً بالموسيقى، صارت اليوم تعوي دوماً وفي كل مكان، «دون أن تتساءل ما إذا كنا نرغب بالإصغاء إليها أم لا»، تعوي في مكبرات الصوت، في السيارات، في المطاعم، في المصاعد، في الشوارع، في صالات الانتظار، في صالات الجمباز، في الآذان المسدودة بالسماعات، موسيقى مُعَادَة الصياغة، مُوَزَّعة على آلات أخرى، مختصرة، ومُقَطَّعَة، شذرات من الروك والجاز والأوبرا، موجة يختلط فيها كل شيء دون أن نعرف من المؤلف (الموسيقى بعد أن

أصبحت ضجة هي مُغْفَلَة)، دون أن نميز البداية أو النهاية (الموسيقى وقد أصبحت ضجة لا تعرف شكلاً): تموت الموسيقى في الماء القذر للموسيقى.

كان شونبرغ يعرف البكتيريا، وكان مدركاً للخطر، لكنه في أعماق نفسه لم يكن يعطيها أهمية فائقة. وكما قلتُ سابقاً، كان يعيش في أرقى أجواء الروح، وكان الزهو يمنعه أن يأخذ على محمل الجد عدواً بمنتهى الضآلة، بمنتهى الابتذال، بمنتهى البشاعة، بمنتهى الوضاعة. الخصم العظيم الوحيد الجدير به، المنافس الأسمى، الذي كان يقاتله ببراعة وقسوة هو إيغور سترافنسكي. وضد موسيقاه كان يقاتل بعنف كي يربح حظوة المستقبل.

لكن المستقبل كان نهراً، كمية كبيرة من النوتات التي طافت جثث مؤلفيها بين الأوراق الميتة والأغصان المقطوعة. وذات يوم اصطدم جسد الميت شونبرغ، المتأرجح بفعل الأمواج الهائجة، بجسد سترافنسكي، وكلاهما تابعا رحلتهما، في مصالحة متأخرة وآثمة، نحو العدم (نحو عَدَمِ الموسيقى الذي هو الضوضاء المطلقة).

40

لنتذكر: عندما توقفت إيرينا على ضفة النهر الذي يجتاز مدينة فرنسية ريفية، شاهدت على الضفة الأخرى أشجاراً

مقطوعة وفي تلك اللحظة، زعقت موسيقى غير متوقعة أفلتت من مكبر الصوت وصدمتها. كانت قد ضغطت يديها على أذنيها وانفجرت في البكاء. بعد بضعة أشهر، كانت في المنزل مع زوجها المحتضر. من الشقة الملاصقة دوَت موسيقى. قرعت جرس الباب مرتين ورجت الجيران إطفاء الجهاز، مرتين، دون جدوى. في النهاية جأرت: «أوقفوا هذا الرعب! زوجي يموت! أنتم تسمعون؟ يموت! يموت!»

خلال سنواتها الأولى في فرنسا، كانت تصغي كثيراً إلى الراديو الذي يجعلها تتآلف مع اللغة والحياة الفرنسية؛ لكن بعد موت مارتن، وبسبب الموسيقى التي كانت قد كرهتها، لم تعد تجد فيها متعة، لأن الأخبار لم تعد تتابع، كما فيما مضى، بطريقة متواصلة، إنما كل خبر ينفصل عن الآخر بثلاث أو ثماني أو خمس عشرة ثانية من الموسيقى، وكانت هذه الفواصل الموسيقية القصيرة، من عام إلى آخر، تزداد بمكر. وراحت على هذا النحو تتعرف بشكل حميمي على ما كان شونبرغ يدعوه «الموسيقى أصبحت ضجة».

وهي ممددة على السرير بجانب غوستاف؛ مضطربة من فكرة موعدها، تخشى من رقادها؛ كانت قد ابتلعت قرصاً منوماً فهدأت، وعندما استيقظت منتصف الليل، تناولت أيضاً قرصين آخرين، ثم بيأس وعصبية، أشعلت بجانب أذنها جهاز راديو صغير. لتستعيد رقادها تريد الاستماع إلى صوت إنساني، كلمة قد تستحوذ على تفكيرها، قد تحملها إلى مكان

آخر، قد تهدئها وتجعلها تغفو؛ تُغَيِّر من محطة إلى أخرى، لكن من كل مكان لا تصدر إلا الموسيقى؛ شذرات من الروك والجاز والأوبرا، وهذا عالم لا يمكنها أن تتوجه فيه إلى أحد لأن الجميع يغنون ويعوون، هذا عالم لا أحد فيه يتوجه إليها لأن الجميع يقفزون ويرقصون.

من جهةٍ ماء الموسيقى القذر، ومن الأخرى شخير، وإيرينا المحاصرة ترغب بفضاء حر حولها، بفضاء للتنفس، لكنها تصطدم بالجسد الشاحب والهامد الذي رماه القدر في طريقها مثل كيس وحل. موجة جديدة من الكراهية حيال غوستاف تستولي عليها، ليس لأن جسده يهمل جسدها (آه لا! لن يعود بوسعها أبداً ممارسة الحب معه!) إنما لأن شخيره يمنعها من النوم وتخشى أن يفسد لقاء حياتها، اللقاء الذي سيحدث عما قريب، خلال ثماني ساعات، لأن الصباح يقترب والرقاد لا يأتي وتعرف أنها ستكون متعبة وعصبية، وبوجه بشع وهرم.

أخيراً، تفعل شدة الكره فعل المخدر وتغفو. حين استيقظت، كان قد خرج بينما جهاز الراديو الصغير بجانب أذنها، لا يزال يبث موسيقى أصبحت ضجة. تشعر بألم في الرأس وتحس أنها منهكة. ودّت لو تبقى في السرير، إلا أن ميلادا أعلنت أنها ستأتي في الساعة العاشرة. لكن لماذا اليوم؟! إيرينا ليس لديها أدنى رغبة بأن تكون مع أي يكن!

41

المنزل الصغير، المبني على منحدر، لم يكن يُظْهِر من الطريق إلا طابقاً أرضياً. عندما فُتِحَ الباب، تعرض جوزيف لهجمات ودية من كلب ألماني ضخم، وبعد برهة مديدة فقط استطاع أن يَلْمَحَ «ن» الذي هَدَّأَ الكلب، وهو يضحك، وقاد جوزيف عبر ممر، ثم عَبْرَ درجٍ طويلٍ، نحو شقة من غرفتين على مستوى الحديقة حيث كان يسكن مع زوجته؛ كانت موجودة وودية، وصافحته.

«في الأعلى، قال «ن» مشيراً إلى السقف، الشقق أوسع بكثير. هناك يعيش ابني وابنتي مع عائلتيهما. الفيللا تعود لابني. يعمل محامياً. خسارة أنه ليس في المنزل. اسمع»، يقول خافضاً صوته، «إذا أردت الاستقرار من جديد في البلد، سيساعدك، سيسهل لك كل شيء»

هذه الكلمات ذكَّرَتْ جوزيف باليوم الذي قدم له فيه «ن»، قبل أربعين عاماً، بالصوت المنخفض ذاته الدال على الثقة، صداقته ومساعدته.

«كلمتهم عنك. . .» قال «ن» ورشق عدة أسماء نحو الطابق؛ وبدأ الأحفاد وأبناؤهم ينزلون، جميلين وأنيقين (لم يكن جوزيف يستطيع الكف عن النظر إلى صهباء، صديقة أحد الأحفاد، ألمانية لم تكن تفهم كلمة تشيكية واحدة) وجميعهم، حتى الفتيات، كانوا يبدون أطول من «ن»؛ (في

حضورهم، كان يشبه أرنباً تائهاً بين عشب مجنون ينمو بسرعة من حوله ويخفيه). مثل عارضي الأزياء وهم يتقاطرون، ابتسموا دون أن يتفوهوا بشيء حتى اللحظة التي رجاهم فيها «ن» أن يتركوه مع صديقه. بقيت زوجته في المنزل وخرجا معاً إلى الحديقة.

تبعهما الكلب وعَلَّقَ «ن»: «لم أشاهده قط بمثل هذا الحماس لزائر. كأنه تعرف إلى مهنتك» ثم روى بالتفصيل كيف خطَّطَ بنفسه حديقته بمروج تَفْصُلُها دروب صغيرة وأشار لصديقة إلى جميع الأشجار المثمرة؛ ولكي يتطرق جوزيف إلى الموضوعات التي يودّ التحدث عنها، اضطر لمقاطعة العرض النباتي المسهب: «أخبرني، كيف عشتَ هذه السنوات العشرين؟

- دعنا لا نتكلم عن ذلك» قال «ن»، وكجواب وضع سبابته على قلبه. لم يكن جوزيف يفهم معنى هذه الإشارة: هل أصابته الأحداث السياسية في الصميم، «حتى في قلبه»؟ أم هل عاش دراما غرامية؟ أم أصيب بجلطة؟

«ذات يوم سأروي لك» أضاف حارِفاً كل النقاش.

لم يكن الحديث سهلاً، وفي كل مرة كان يتوقف فيها جوزيف ليصيغ سؤالاً على نحو أفضل، كان الكلب يشعر أن الفرصة متاحة للقفز عليه ووضع قائمتيه على بطنه.

«قال «ن»: أَتَذَكَّرُ ما أكدته لي دوماً، يصبح المرء طبيباً،

لأنه يهتم بالأمراض. ويصبح طبيباً بيطرياً بسبب حبه للحيوانات.

- أنا قلت هذا حقاً؟» دُهشَ جوزيف. تَذَكَّرَ أنه كان قد شرح أول أمس لزوجة أخيه أنه اختار مهنته ليتمرد على أسرته. هل تصرف إذاً بدافع الحب وليس التمرد؟ في شرود واحد مبهم رأى جميع الحيوانات المريضة التي عرفها تتقاطر أمامه؛ ثم رأى عيادته البيطرية في الجزء الخلفي من منزله القرميدي، حين كان سيفتح غداً (لكن أجل، بالضبط خلال أربع وعشرين ساعة!) الباب ليستقبل أول مريض لذلك النهار؛ فَغَطَّتْ ابتسامة مديدة وجهه.

اضطر إلى إرغام نفسه ليعود من جديد إلى حديث لم يكد يبدأ: سَأَلَ «ن» إن كان أحد هاجمه بسبب ماضيه السياسي، فأجاب «ن» بالنفي؛ والناس، برأيه، كانت تعرف أنه ساعد دوماً أولئك الذين كان النظام يزعجهم. «لا أشك بذلك»، قال جوزيف (ولم يكن يشك حقاً بذلك) لكنه ألحّ: كيف كان «ن» نفسه يحكم على كل حياته الماضية؟ كخطأ؟ كهزيمة؟ هَزَّ «ن» رأسه قائلاً إنها لم تكن لا هذا ولا ذاك. سأله أخيراً عمّا يعتقده بشأن العودة السريعة والفظة للرأسمالية. هَزَّ «ن» كتفيه وأجاب أنه بحسب الوضع لم يكن يوجد حل آخر.

لا، لم تفلح المحادثة في التوطد، فكر جوزيف في البداية أن «ن» كان يجد أسئلته متطفلة. ثم صحح: كانت تتجاوز الحد أكثر منها متطفلة. لو أن حلم زوجة أخيه

الانتقامي تحقق، ولو أن «ن» اتُّهِمَ واسْتُدْعِي إلى محكمة، أما كان في هذه الحالة سيعود ربما إلى ماضيه الشيوعي ليشرحه ويدافع عنه؟ لكن من دون هذا الاستدعاء، أصبح هذا الماضي اليوم بعيداً عنه. ولم يعد يسكنه.

تذكر جوزيف فكرته القديمة جداً، التي اعتبرها آنذاك تجديفاً: الانتماء إلى الشيوعية لا علاقة له بماركس ونظرياته؛ المرحلة قدمت فقط الفرصة للناس ليستطيعوا تلبية احتياجاتهم النفسية الأكثر تنوعاً: الحاجة إلى الظهور بمظهر المستقل؛ أو الحاجة إلى الطاعة؛ أو الحاجة إلى معاقبة الأشرار؛ أو الحاجة إلى أن يكون مفيداً؛ أو الحاجة إلى التقدم نحو المستقبل مع الشباب؛ أو الحاجة إلى تكوين أسرة كبيرة حوله.

بمزاج منشرح كان الكلب ينبح وجوزيف يقول في سره: يترك الناس الشيوعية اليوم ليس لأن تفكيرهم تَغَيَّرَ، وتَعَرَّضَ لصدمة، إنما لأن الشيوعية لم تعد تتيح الفرصة لا لِيُظْهِرَ المرء نفسه بمظهر المستقل، ولا للطاعة ولا لعقاب الأشرار، ولا ليكون مفيداً ولا ليتقدم مع الشباب، ولا لِيُشَكِّلَ حوله أسرة كبيرة. لم تعد الفكرة الشيوعية تستجيب لأي حاجة. أصبحت مُعَطَّلَة إلى حدّ أن الجميع يتخلون عنها بسهولة، حتى دون أن ينتبهوا لذلك.

لا يمنع أن الغاية الأولى لزيارته بقيت لديه غير مشبعة: وهي أن يعلم «ن» أنه هو جوزيف كان سيدافع عنه أمام أي محكمة متخيلة. وحتى يصل إلى ذلك كان يريد في البداية أن

يُظْهِر أنه ليس متحمساً بلا تبصر للعالم الذي أقيم هنا بعد الشيوعية واستحضر الصورة الإعلانية الكبيرة في ساحة مدينته الأم حيث يَعْرُضُ شعارٌ غير مفهوم على التشيك خدمات مُظْهِرَاً لهم يداً بيضاءَ ويداً سوداءَ تتصافحان: «قل لي، هل ما زال هذا بلدنا؟»

كان ينتظر أن يسمع تهكماً موجهاً للرأسمالية العالمية التي تُوَحِّدُ الكوكب، لكن «ن» صمت. تابع جوزيف: «انهارت الإمبراطورية السوفيتية لأنها لم تعد تستطع قهر الأمم التي تريد أن تكون سيدة، لكن هذه الأمم أصبحت الآن أقل سيادة من أي وقت مضى. لا يسعها اختيار اقتصادها ولا سياستها الخارجية ولا حتى شعارات إعلاناتهم».

- قال «ن»: السيادة الوطنية أصبحت وهماً منذ زمن طويل.

- لكن إذا كان هناك بلد غير مستقل ولا يرغب حتى أن يكون كذلك، هل سيظل أحد مستعد للموت من أجله؟

- لا أريد أن يكون أبنائي مستعدين للموت.

- سأقول ذلك بطريقة أخرى: هل لا يزال هناك من يحب هذه البلد؟

أبطأ «ن» سيره: «جوزيف»، قال متأثراً. «كيف استطعت أن تهاجر؟ أنت وطني!» ثم بمنتهى الجدية: «الموت من أجل البلد، هذا لم يعد موجوداً. ربما بالنسبة لكَ، الزمن توقف أثناء هجرتك. أما هؤلاء، فلم يعودوا يفكرون مثلك.

- من؟»

أومأ برأسه نحو طوابق المنزل، كما لو أنه يشير إلى ذريته. «إنهم في مكان آخر»

42

خلال العبارات الأخيرة، ظل الصديقان في مكانهما؛ استفاد الكلب من ذلك: انتصب ووضع قائمتيه على جوزيف الذي داعبه. تأمل «ن» هذا الزوج المؤلف من رجل وكلب طويلاً؛ بتحنن متزايد. كما لو أنه الآن فقط تأكد من مضي هذه السنوات العشرين دون أن يريا بعضهما خلالها: «آه، كم أسعدني مجيئك!» ربَّتَ على كتفه ودعاه للجلوس تحت شجرة تفاح. وفجأة أدرك جوزيف ذلك: الحديث الجَدِّي والهام الذي كان قد أَعَدَّ له لن يحدث. وفي غمرة تفاجُئه، أصبح ذلك عزاءً وخلاصاً! فبعد كل شيء لم يأتِ ليُخْضِعَ صديقه لاستجواب!

وكما لو أن مزلاج باب قفز، انطلق حديثهما بحرية ومتعة، ثرثرة بين صديقين قديمين: ذكريات مبعثرة، أخبار أصدقاء مشتركين، تعليقات لطيفة، مفارقات، مزحات. كان ذلك كأن ريحاً عذبة ودافئة وقوية احتضنته بين ذراعيها. شعر جوزيف بفرح لا يقاوم للكلام، آه، فرح غير متوقع البتة! خلال عشرين عاماً لم يكد يتكلم التشيكية. كان الحديث مع

زوجته سهلاً، فاللغة الدنماركية أصبحت لغتهما الهجينة الحميمية، لكنه ظل مع الآخرين متيقظاً لاختيار الكلمات ولبناء جملة، ولمراقبة نبرته. كان يبدو له وهو يتكلم أن الدنماركيين يركضون بخفة، بينما هو يَخِبُّ خلفهم محملاً بوزن عشرين كيلوغراماً. الآن أصبحت الكلمات تخرج من فمه من تلقاء ذاتها، دون أن يحتاج إلى البحث عنها ومراقبتها. لم تعد التشيكية تلك اللغة المجهولة ذات الخنة التي أدهشته في الفندق بمدينته الأم. تَعَرَّفَ عليها أخيراً وتذوقها. شعر معها بنفسه رشيقاً كما بعد جلسة تنحيف. راح يتحدث كما لو أنه يطير، وللمرة الأولى في إقامته كان سعيداً في بلده ويشعر أنه فعلاً بلده.

موخوزاً بالسعادة التي كانت تشع من صديقه، راح «ن» يشعر باسترخاء متزايد، وبابتسامة متواطئة، استحضر عشيقته السرية قديماً وشكر جوزيف لأنه استخدمه ذات مرة كحجة غياب عند زوجته. لم يتذكر جوزيف وكان واثقاً أن «ن» خلط بينه وبين آخر، لكن قصة حجة الغياب التي رواها له «ن» بإسهاب كانت من الجمال والظرف بحيث أن جوزيف انتهى إلى قبول لَعِبِ دور البطولة فيها. كان رأسه مائلاً إلى الخلف والشمس، عبر أوراق الشجر، تضيء ابتسامة مغتبطة على وجهه.

فاجأتهما زوجة «ن» وهما على هذه الحالة من السعادة وقالت لجوزيف: «هل ستتغدى معنا؟»

نظر إلى ساعته ونهض. «لدي موعد خلال نصف ساعة!

- إذاً، تعال هذا المساء! سنتعشى سوية، رجاه بحرارة.

- هذا المساء سأخلد إلى منزلي.

- عندما تقول في منزلي، تقصد...

- في الدنمارك.

- من الغريب جداً أن أسمعك تقول هذا. منزلك إذاً لم يعد هنا؟ سألت زوجة «ن»

- لا، إنه هناك»

مرّت لحظة صمت مديدة وتوقع جوزيف سيلاً من الأسئلة: إذا كانت الدنمارك هي حقاً منزلك، فكيف تعيش فيها؟ ومع مَن؟ احكِ! كيف منزلك؟ من هي زوجتك؟ وهل أنت سعيد؟ احكِ! احكِ!

لكن لا «ن» ولا زوجته تَفَوَّها بأي من هذه الأسئلة. خلال برهة، ظهر أمام جوزيف سور خشبي واطئ وشجرة صنوبر.

«يجب أن أذهب»، قال، وتوجهوا جميعاً نحو الدرج. كانوا صامتين وهم يصعدون، وفي هذا الصمت، ذُهِلَ جوزيف فجأة لغياب زوجته؛ لم يكن هنا أي أثر لوجودها. خلال ثلاثة أيام مضت في هذا البلد، لم يقل أحد كلمة واحدة بشأنها. فَهِمَ: إذا بقي هنا فسيفقدها. إذا بقي هنا فستختفي.

توقفوا على الرصيف، تصافحوا مرة أخرى أيضاً وأسند

الكلب قائمتيه إلى بطن جوزيف ثم نظر إليه الثلاثة وهو يبتعد حتى اختفى عن أعينهم.

43

عندما رأتها، بعد كثير من السنوات، في قاعة المطعم بين نساء أخريات، شعرت ميلادا بحنان تجاه إيرينا؛ افْتُتِنَتْ على نحو خاص بتفصيل: تَلَتْ إيرينا آنذاك رباعية لجان سكاسل. في بوهيميا الصغيرة، من السهل مصادفة شاعر والتقرّب منه. كانت ميلادا قد تعرفت إليه، رجلاً مربوعاً ذا وجه قاس، كأنه قُدَّ من الصخر، وتَوَلَّهَت به بسذاجة فتاة في مقتبل العمر تنتمي إلى زمن آخر. شِعره نُشِرَ للتو في مجلد واحد وميلادا تأخذه كهدية لصديقتها.

تتصفح إيرينا الكتاب: «هل لا يزال الناس يقرؤون الشعر اليوم؟

- نادراً جداً» تقول ميلادا، ثم تستشهد لها ببضعة أبيات حفظتها عن ظهر قلب: «**في الظهيرة، أرى أحياناً الليل ينطلق نحو النهر**... أو اصغِ: **في المستنقعات، الماء منقلبٌ على قفاه**. أو، ثمة مساءات، يقول سكاسل، الهواء فيها رقيق وهش إلى حد أن **المرء يستطيع المشي بقدمين حافيتين على كسرات الخزف**».

وهي تصغي إليها، تتذكر إيرينا الرؤى المفاجئة التي كانت

تنبثق على نحو مباغت في رأسها خلال السنوات الأولى من هجرتها. كانت شذرات من هذا المشهد ذاته.

«أو هذه الصورة: ... **على حصان الموتُ وطاووس**»

تلفظت ميلادا هذه الكلمات بصوت يرتعش بخفة: كانت تذكرها دوماً بهذه الرؤية: جوادٌ يعدو عبر الحقول؛ على ظهره هيكل عظمي يحمل بيده منجلاً وخلفه، على الكفل، طاووس نَفَشَ ذيله الزاهي واللامع كغرورٍ أبدي.

تنظر إيرينا بامتنان إلى ميلادا، الصديقة الوحيدة التي وجدتها في هذا البلد، تنظر إلى وجهها الدائري الجميل الذي يزيد شعرها من استدارته؛ وفيما هي تصمت متأملة، اختفت تجاعيدها في ثبات بشرتها، وبدت امرأة شابة؛ تتمنى إيرينا ألا تتكلم وألا تستظهر أبيات الشعر، وأن تظل لزمن طويل ساكنة وجميلة.

«أنت تسرحين شعرك دوماً على هذا النحو، أليس كذلك؟ لم أركِ قط بتسريحة أخرى»

كما لو أنها تريد أن تتجنب هذا الموضوع، تقول ميلادا:

«إذاً، هل سينتهي بكِ المطاف أن تقرري ذات يوم؟

- تعرفين حق المعرفة أن لدى غوستاف مكاتبه في براغ وفي باريس!

- لكن إذا فَهِمْتُ جيداً، يريد الإقامة بشكل نهائي في براغ.

- اسمعي، السفر المكوكي بين باريس وبراغ يناسبني.

لدي عملي هنا وهناك، وغوستاف هو رئيسي الوحيد، نحن نتدبر أمورنا ونرتجل.

- ما الذي يربطك بباريس؟ ابنتاك؟

- لا، لا أريد فَرْضَ نفسي على حياتهما.

- هل لديك أحد فيها؟

- لا أحد» ثم: «شقتي الخاصة» ثم: «استقلاليتي» وأيضاً ببطء: «دوماً تَوَلَّدَ لدي انطباع أن حياتي أدارها آخرون، ما عدا بعض السنوات بعد موت مارتن. كانت السنوات الأقسى، كنتُ وحيدة مع طفلتي، وكان علي أن أتدبر أمري. إنه البؤس. لن تصدقيني، لكنها اليوم في ذاكرتي من أسعد سنواتي»

هي نفسها صُدِمَتْ لوصفها السنوات التي تلت موت زوجها بالأسعد وعَدَّلَتْ: «أعني أنها كانت المرة الوحيدة التي كنت فيها سيدة حياتي»

سكتت. لم تقطع ميلادا الصمت وتابعت إيرينا: «تزوجتُ وأنا فتية، فقط لأهرب من أمي، لكنه لهذا السبب بالضبط، كان قراراً إلزامياً وليس حراً حقاً. والأنكى: للفرار من أمي تزوجْتُ رجلاً كان صديقها القديم. لأنني لم أكن أعرف إلا أناساً من محيطها. لذلك حتى وأنا متزوجة، بَقيْتُ تحت رقابتها.

- كم كان عمرك؟

- لم أكد أبلغ العشرين. ومنذ ذلك الحين تَقَرَّرَ كل شيء

نهائياً. في تلك اللحظة ارتكبْتُ خطأً، خطأ يصعب تعريفه، لا يمكن إدراكه، لكنه كان نقطة انطلاق كل حياتي ولم أفلح قط في إصلاحه.

- خطأ لا يمكن إصلاحه مُرْتَكَبٌ في سن الجهل.

- أجل.

في تلك السن يتزوج المرء وينجب طفله الأول ويختار مهنته. ثم يعرف ذات يوم ويفهم الكثير من الأشياء، لكن الوقت يكون تأخر كثيراً، لأن الحياة برمتها تكون قد تقررت في فترة لا يعرف عنها شيئاً.

نعم، نعم، حتى هجرتي! هي أيضاً لم تكن إلا نتيجة قراراتي السابقة. هاجرتُ لأن الشرطة السرية لم تترك مارتن وشأنه. هو لم يعد يستطيع العيش هنا. أما أنا، بلى. كنتُ متضامنة مع زوجي ولستُ آسفة على ذلك. هذا لم يمنع أن هجرتي لم تكن قضيتي ولا قراري ولا حريتي ولا قدري. أمي دفعتني نحو مارتن، ومارتن قادني إلى الغربة.

- أجل، أَتَذَكَّر. تَقَرَّرَ ذلك من دونك.

- حتى أمي لم تعترض على ذلك.

- على العكس، هذا لاءمها.

- ماذا تعنين؟ الفيللا؟

- كل شيء يتعلق بالملكية.

- تقول إيرينا بابتسامة خفيفة: ها أنتِ تعودين ماركسية.

- ألم تشاهدي كيف وُجِدَتْ البرجوازية من جديد خلال

بضعة أيام بعد أربعين عاماً من الشيوعية؟ استمروا بألف طريقة، بعضهم سُجِنَ، وبعضهم طُرِدَ من مركزه، وآخرون ممّن تدبروا أمورهم بطريقة رائعة حصلوا على مهن لامعة، سفراء وأساتذة جامعات. الآن، أبناؤهم وأحفادهم تجمعوا من جديد، نوع من الأخوة السرية، ويَشْغَلُون المصارف والصحف والبرلمان والحكومة.

- لكن حقاً أنتِ ما زلتِ شيوعية.

- هذه الكلمة لم تعد تعني شيئاً. لكن الصحيح أنني بقيت دوماً ابنة عائلة فقيرة»

تسكت وتمر صور في رأسها: فتاة من أسرة فقيرة عاشقة لفتى من أسرة ثرية؛ امرأة شابة تريد أن تجد في الشيوعية معنى لحياتها؛ بعد عام 1968، امرأة ناضجة تتزوج من منشقٍّ وفجأة تَعْرِفُ عالماً أرحب بكثير من ذي قبل: ليس فقط شيوعيون متمردون على الحزب، إنما أيضاً قساوسة وسجناء سياسيون سابقون وبرجوازيون كبار فقدوا مكانتهم. ثم بعد عام 1989، كأنها خارجة من حلم؛ تعود من جديد كما كانت: فتاة هرمة من أسرة فقيرة.

سألتها إيرينا: «المعذرة، سبق أن قُلْتِ لي ذلك لكنني لست متأكدة: أين ولدتِ؟»

قالت اسم مدينة صغيرة.

«سأتغدى اليوم مع شخص من هناك

- ماذا يدعى؟»

حين سمعت اسمه، ابتسمت ميلادا: «أرى أنه يجلب لي مرة أخرى أيضاً النحس. كنت أو دعوتك إلى الغداء. خسارة»

44

وصل في الموعد المحدد، لكنها كانت تنتظره في بهو الفندق. قادها إلى قاعة الطعام وأجلسها مقابله على الطاولة التي حجزها.

بعد بضع عبارات، تقاطعه: «إذاً، ما الذي يروقك هنا؟ هل تود البقاء؟

- قال: لا» ثم سألها بدوره: «وأنتِ؟ ما الذي يبقيكِ هنا؟

- لا شيء»

كانت الإجابة قاطعة وتشبه إجابته إلى حدٍّ أنهما انفجرا ضاحكين سوية. وهكذا مُهِرَ اتفاقهما بِخَتْمٍ وراحا يتحدثان بحيوية ومرح.

يطلب الوجبة وعندما يُحْضِرُ له النادل قائمة النبيذ، تستولي عليها إيرينا: «الوجبة لك والنبيذ لي!» تشاهد على القائمة بعض النبيذ الفرنسي وتختار واحداً: «النبيذ بالنسبة لي مسألة شرف. مواطنونا ليسوا ماهرين في النبيذ، وأنتَ المخبول باسكندنافيتك البربرية، لديك أيضاً مهارة أقل».

تروي له كيف رفضت صديقاتها شرب البوردو الذي

أحضرته لهن: «تَخَيَّلْ، معتقٌ منذ عام 1982! وهن، عن عمدٍ، شربن بيرة ليلقنَّني درساً في الوطنية! بعد ذلك أَشْفَقْنَ علي، وبعد أن انتشين من البيرة، تابعنَ مع النبيذ!»

تروي، إنها ظريفة، يضحكان.

«الأسوأ هو أنهن كن يكلِّمنني عن أشياء وأناس لا أعرف عنهم شيئاً. لم يَكُنَّ يُرِدْنَ أن يفهمن بأن عالمهن، بعد كل هذا الزمن، تبخر من رأسي. فكّرن أنني كنت أريد بنسياني أن أجعل نفسي مهمة. أن أتميز. كان حديثاً غريباً: أنا نسيت من يكن؛ وهن لم يهتممن بما صرته. هل تدرك أن أحداً هنا لم يطرح علي البتة سؤالاً واحداً عن حياتي هناك؟ ولا مجرد سؤال! البتة! يلازمني انطباع أنهم يريدون أن يبتروا هنا عشرين عاماً من حياتي. حقاً لدي شعور بالبتر. أشعر بنفسي متقلصة، متضائلة، مثل قزمة».

تعجبه وما ترويه يعجبه أيضاً. يفهمها ويتفق مع كل ما تقوله.

«وفي فرنسا، هل يطرح عليك أصدقاؤك أسئلة؟»

توشك أن تقول له أجل، لكنها بعد ذلك، تُغَيِّر رأيها؛ تريد أن تكون دقيقة فتتكلم ببطء: «بالتأكيد لا! لكن عندما يلتقي الناس غالباً، يفترضون أنهم يعرفون بعضهم، ولا يطرحون أسئلة ولا يحبطهم ذلك. وحين لا يهتمون ببعضهم بعضاً، يكون هذا بمنتهى البراءة. ولا ينتبهون لذلك.

- هذا صحيح. فقط عند العودة إلى البلد بعد غياب

طويل يُفَاجَأ المرء بهذه البديهية: الناس لا يهتمون ببعضهم بعضاً وهذا طبيعي.

- أجل، هذا طبيعي.

- لكنني كنتُ أفكر بشيء آخر. لا ليس أنتِ ولا حياتكِ ولا شخصكِ. كنت أفكر في تجربتكِ. وبما شاهدته وبما عرفته. من هذه الزاوية، لم يكن بوسع أصدقائك الفرنسيين أن يمتلكوا أي فكرة.

- الفرنسيون، كما تعرف، ليسوا بحاجة إلى التجربة. الأحكام عندهم تسبق التجربة. عندما وصلنا إلى هناك، لم يكونوا بحاجة إلى معلومات. سبق لهم أن تحققوا تماماً أن الستالينية شريرة وأن الهجرة هي تراجيديا. لم يفهموا بماذا كنا نفكر، اهتموا بنا بوصفنا براهين حية على ما يفكرون به هم. لذلك كانوا كريمين معنا وفخورين لأنهم كذلك. حين انهارت ذات يوم الشيوعية، حَدَّقُوا فيَّ بثبات، بنظرة فاحصة. وعندئذٍ، تَعَكَّرَ شيء ما. لم أتصرف كما يتوقعون مني».

تشرب جرعة نبيذ؛ ثم : «فعلوا الكثير حقاً لأجلي. رأوا فيَّ ألم المهاجرة. ثم حانت اللحظة التي يترتب عليَّ فيها أن أؤكد هذا الألم بواسطة الفرح بالعودة، ولم يحدث هذا التأكيد. شعروا أنهم خُدِعُوا. وأنا أيضاً، لأنني اعتقدْتُ أثناء ذلك أنهم يحبونني ليس لأجل ألمي، إنما لذاتي...»

تُكَلِّمُه عن سيلفي. «خاب أملها لأنني لم أهرع منذ اليوم الأول إلى المتاريس في براغ!

- المتاريس؟

- بالتأكيد لم تكن موجودة، لكن سيلفي كانت تتخيلها.

لم أستطع المجيء إلى براغ إلا بعد أشهر عديدة، بعد انتهاء الأمر، ومَكَثْتُ فيها آنذاك لبعض الوقت. عندما عُدْتُ إلى باريس، شعرتُ بحاجة مجنونة للكلام معها وكما تعرف، كنتُ أحبها حقاً، ووَدِدْتُ أن أروي لها كل شيء، وأناقشها بكل شيء، بصدمة العودة إلى البلد بعد عشرين عاماً، لكن لم يعد لديها رغبة كبيرة لرؤيتي.

- هل اختلفتما؟

- لكن لا، ببساطة لم أَعُدْ مُهَاجِرة. ولم أعد مهمة. لذلك، شيئاً فشيئاً، بلطف وابتسامة كفت عن البحث عني.

- مع مَن يمكنك إذاً أن تتكلمي؟ مع مَن تتفاهمين؟

- لا أحد» ثم: «معك».

45

صمَتا. ورَدَّدَتْ بنبرة وقورة تقريباً: «معك» وأضافت أيضاً: «ليس هنا في فرنسا. أو بالأحرى في مكان آخر. لا يهم أين»

بهذه الكلمات، عرضت عليه مستقبلها. ولو أن جوزيف لا يهتم بالمستقبل، إلا أنه شعر بالسعادة مع هذه المرأة التي تشتهيه بمنتهى الوضوح. كما لو أنه ألقى نفسه بعيداً إلى

الوراء، في السنوات التي كان يرتاد فيها براغ للبحث عن غانيات. كما لو أن تلك السنوات تدعوه اليوم لاستعادة ذلك السياق هناك حيث قَطَعَهُ. يشعر أنه يجدِّد شبابه بصحبة هذه المجهولة، وفجأة، بدت له فكرة أن يبتر هذه الأمسية بسبب موعد مع ابنة زوجته غير مقبولة.

«هل تعذرينني؟ يجب أن أتصل بشخص». ينهض ويتّجه نحو غرفة الهاتف.

تنظر إليه، يتقوس بخفة وهو يرفع السماعة؛ مع هذا البعد، تُقَدِّرُ عمره بوضوح أكبر. عندما رأته في المطار، كان يبدو لها أكثر شباباً؛ وتتأكد الآن أنه يكبرها ولا بد بخمسة عشر أو عشرين عاماً؛ مثل مارتن ومثل غوستاف. لم تشعر بخيبة أمل من ذلك، على العكس، هذا يعطيها انطباعاً مشجعاً بأن هذه المغامرة، مهما كانت جريئة ومُجَازِفَة، تنتمي إلى نظام حياتها وهي أقل جنوناً مما تبدو عليه (أشير: تشعر أنها متحمسة مثل غوستاف عندما عَلِمَ قديماً بعمر مارتن)

لم يكد يقدِّم نفسه حتى هاجمته ابنة زوجته: «تتصل بي لتقول لي إنك لن تأتي

– ها قد فهمتِ. بعد كل هذه السنوات الطويلة، لدي كثير من الأشياء لأقوم بها. ليس لدي دقيقة فراغ واحدة. اعذريني.

– متى ستغادر؟»

يوشك أن يقول لها «هذا المساء» لكن خطر بباله أنها قد تبحث عن لقائه في المطار. يكذب: «غداً صباحاً.

- وليس لديك وقت لرؤيتي؟

- لا

- رغم كل شيء، أنا ابنة زوجتك!»

التشدّق الذي صَرَخَتْ به تقريباً عبارتها الأخيرة يُذَكِّره بكل ما كان يُرعبه قديماً في هذا البلد. ينتفض ويبحث عن إجابة لاذعة.

كانت أسرع منه: «تسكت! لا تعرف بماذا تجيب! حسناً، سأقول لك أنا، حذّرتني أمي من الاتصال بك. أوضحت لي أي أناني أنت! أي قذر بائس وأناني وضيع»

أغلقت السماعة.

يتجه نحو الطاولة ويشعر بنفسه كأنه ملوث بالقذارات. فجأة، وعلى نحو غير منطقي، تخترق روحه جملة: «لدي الكثير من النساء، لكن ليس لدي أي أخت» يُفَاجَأ بهذه الجملة وبكلمة: أخت؛ يبطئ سيره ليتنسم هذه الكلمة الوديعة للغاية: أخت. حقاً، في هذا البلد، لم يجد قط أي أخت.

«هل ثمة شيء مزعج؟

- لا شيء خطير، يجيب وهو يجلس. لكن مزعج، أجل»

يسكت.

هي أيضاً. تُذَكِّرُها الحبوب المنومة في ليل بلا رقاد

بالتعب. راغبة في طرده، تصب بقية النبيذ في كأسها وتشربه. ثم تضع يدها على يد غوستاف: «لسنا على ما يرام هنا. أدعوك إلى شرب شيء ما»

يتوجهان نحو البار حيث تنبعث موسيقى صاخبة.

تتراجع إلى الوراء، ثم تسيطر على نفسها: ترغب بالكحول. وعلى طاولة الشراب، يشرب كل واحد منهما كأس كونياك.

ينظر إليها: «ماذا يحدث؟»

تومئ برأسها

«الموسيقى؟ هيا إلى منزلي»

46

أن تعرف بوجود غوستاف في براغ من فم إيرينا، فذلك كان بالنسبة إلى ميلادا مصادفة غريبة للغاية. لكن في عمر معين، تفقد المصادفات سحرها، ولا تعود تفاجِئ، وتصبح مبتذلة. لم تُثِرْ فيها ذكرى غوستاف أي اضطراب. تتذكر بمزاج حزين فقط أنه كان يحب إخافتها من الوحدة وأنه في الواقع كان يحكم عليها بتناول وجبة الظهر وحيدة.

أحاديثه عن الوحدة. لعل هذه الكلمة ظلت في ذاكرتها لأنها كانت تبدو لها غير مفهومة البتة: وهي فتية، ولديها أخوين وأختين، كانت تخاف الحشود؛ لم يكن لديها غرفة

خاصة بها للعمل، للقراءة وكانت تجد بصعوبة زاوية لتنفرد فيها بنفسها. وبوضوح، لم تكن اهتماماتهم هي ذاتها، لكنها كانت تدرك أن كلمة وحدة من فم الشاب جوزيف تكتسب معنى أكثر تجريداً وأكثر نبلاً: اجتياز الحياة دون أن يهتم أحد؛ التحدث دون وجود من يصغي؛ التألم دون استدرار أي عطف؛ أي العيش كما عاشت بعد ذلك فعلاً.

رَكَنَتْ سيارتها في حي بعيد عن منزلها وراحت تبحث عن حانة. عندما لا يكون لديها أحد تتناول الغداء معه، لا تذهب إطلاقاً إلى المطعم (حيث، في مواجهتها، على كرسي فارغ، ستجلس الوحدة تراقبها)، لكنها تُفضل أن تتناول سندويشاً وهي متكئة على المشرب. وبينما هي تمر أمام واجهة، يقع نظرها على ظلها المنعكس. تتوقف. تتمرى، هذا هو عيبها، ربما الوحيد. متظاهرة بمعاينة البضائع المعروضة، تراقب نفسها: الشعر البني، العينان الزرقاوان، شكل الوجه المدور. تعرف أنها جميلة، عرفت ذلك دوماً وهذه سعادتها الوحيدة.

ثم تدرك أن ما تراه ليس فقط وجهها المنعكس على نحو غامض، إنما واجهة جزار: ذبيحة معلقة، أفخاذ مقطوعة، رأس خنزير له خطم مؤثر وودي؛ ثم، أبعد من ذلك في الحانوت، أجساد طيور منتوفة، قوائمها مرفوعة، بعجز، مرفوعة بترتيب إنساني، وفجأة، يخترقها الرعب، ويتغضن وجهها، تتخيل ساطوراً، ساطور جزار، ساطور جراح، تعتصر قبضتيها وترغم نفسها على طرد الكابوس.

طَرَحَتْ اليوم عليها إيرينا سؤالاً تسمعه من حين إلى آخر: لماذا لم تُغَيِّر قط تسريحتها. لا، ميلادا لم تغيرها ولن تغيرها لأنها جميلة فقط حين تحتفظ بشعرها كما هو مصفف حول رأسها. ولأنها تعرف الثرثرة المتطفلة لمصففي الشعر، اختارت مصففها في ضاحية لن تأتي أي من صديقاتها إليها لتتزين فيها. كان عليها أن تحمي سر أذنها اليسرى مقابل انضباط كبير ونظام صارم من الاحتياطات. كيف توفق بين الرغبة بالرجال والرغبة بأن تكون جميلة في نظرهم؟ في البداية بحثت عن تسوية (أسفار يائسة إلى الخارج حيث لا أحد يعرفها وحيث لا يمكن لأي متطفل أن يغدر بها)، ثم، فيما بعد أصبحت جذرية ونذرت حياتها الإيروتيكية لجمالها.

واقفة أمام المشرب، تشرب البيرة ببطء وتأكل سندويشة جبنة. لا تتعجل؛ فليس لديها شيء لتفعله. وكما في جميع أيام الأحد: بعد الظهر ستقرأ، وفي المساء ستتناول في منزلها الوجبة وحيدة.

47

تأكدت إيرينا أن التعب لم يكف عن ملاحقتها. وهي في الغرفة لبضع لحظات، فتحت خزانة الشراب، وأخذت ثلاث زجاجات صغيرة من أنواع مختلفة من الكحول. فتحت واحدة وشربتها. ودست الزجاجتين الأخريين في حقيبة يدها التي

وضعتها على طاولة السرير. تلاحظ على الطاولة كتاباً باللغة الدنماركية: **الأوديسة**.

«قالت لجوزيف الذي عاد: أنا أيضاً فكرت بعوليس

- قال جوزيف: غاب عن بلده مثلك، لمدة عشرين عاماً

- عشرون عاماً؟

- أجل، عشرون عاماً بالضبط.

- هو على الأقل كان سعيداً بالعودة.

- هذا ليس مؤكداً. رأى أن مواطنيه خانوه وقتل منهم الكثير. لا أظن أنه يمكن أن يكون محبوباً.

- مع ذلك كانت بنلوب تحبه

- ربما.

- ألستَ متأكداً من ذلك؟

- قرأتُ وأعدْتُ قراءة مقطع استعادة علاقاتهما. في البداية، لم تتعرّف عليه. بعد ذلك، عندما أصبح كل شيء واضحاً للجميع وعندما قُتِلَ الطامحون وعُوقِبَ الخونة، ظلت تُجَشِّمُه عناء براهين جديدة لتتأكد أنه هو حقاً. أو بالأحرى، لترجئ اللحظة التي سيلتقيان فيها على السرير.

- يمكن تَفَهُّمُ هذا، أليس كذلك؟ لا بد أنه كان مُعَطَّلاً بعد عشرين عاماً. وهل كانت مخلصة له طوال تلك الفترة؟

- لم يكن يسعها إلا أن تكون كذلك، كانت مراقَبَة من الجميع. عشرون عاماً من العفّة. ولا بد أن ليلة حبّها كانت

صعبة. أتخيل أن فرجها خلال هذه السنوات العشرين ضاق وتقلّص.

- كانت مثلي.

- كيف!

- لا، لا تخف! هتفت ضاحكة. لا أتكلم عن فرجي! لم يتقلص!»

منتشية فجأة من ذكر اسم فرجها صراحة، تُردِّدُ عليه بصوت أخفض، وبشكل بطيء، الجملة الأخيرة بكلمات فاحشة. ومن ثم، مرة أخرى أيضاً، وبصوت أخفض من قبل، بكلمات أكثر فحشاً.

لم يكن هذا متوقعاً! كان مُحَمِّساً! ولأول مرة منذ عشرين عاماً، يسمع هذه الكلمات التشيكية الفاحشة، وعلى حين غرة، يُسْتَثار كما لم يُستثر قط منذ أن غادر البلد، لأن كل هذه الكلمات الماجنة والقذرة والفاحشة ليس لها أي سلطة عليه إلا في لغته الأم (في لغة إيثاكا)، ما دامت الإثارة تتصاعد فيه من أجيال وأجيال بهذه اللغة وبواسطة جذوره العميقة. حتى هذه اللحظة، لم يتبادلا القبل. والآن مُسْتَثَارين على نحو رائع، شرعا يتضاجعان خلال بضع عشرات من الثواني.

اتفاقهما كلي، لأنها هي أيضاً استثيرت من الكلمات التي لم تتفوه بها ولم تسمعها منذ كثير من السنوات. تفاهمٌ كلي على تفجير الفحش! آه، حياتهما، كم كانت يائسة! كل الرذائل الممنوعة وكل الخيانات غير المتحققة، كل هذا، تريد

أن تَحْيَاهُ بنهم. تريد أن تعيش كل ما تصورته دون أن تكون عاشته من قبل، التلصُّص، التعري، الحضور البذيء للآخرين، الكلام الشفهي الفاحش؛ وكل ما يمكنها تحقيقه الآن، وما تحاول تحقيقه، وهو غير قابل للتحقق، تتخيله معه بصوت مرتفع.

اتفاقهما كلي، لأن جوزيف يعرف في قرارة نفسه (وربما يرغب به) أن هذه الحفلة الإيروتيكية هي الأخيرة؛ وهو أيضاً يمارس الحب كأنه يريد اختصار كل شيء، مغامراته المنصرمة وتلك التي لم تحدث بعد. بالنسبة إلى كليهما، مرورٌ متسارع للحياة الجنسية: الجرأة التي يصل إليها العشاق بعد لقاءات عديدة، إن لم يكن بعد سنوات عديدة، ينجزونها على عجل، أحدهما يثير الآخر، كما لو أنهما يريدان أن يكثّفا في هذه الأمسية كل ما فاتهما وما سيفوتهما.

ثم، لاهثين، يظلان ممددين أحدهما بجانب الآخر، على ظهريهما، وتقول: «أوه، منذ سنوات لم أمارس الحب! أنت لا تصدقني، منذ سنوات لم أمارس الحب!»

يثير مشاعره هذا الصدق، على نحو غريب، وبعمق؛ يغمض عينيه. تستفيد من ذلك لتنحني نحو حقيبة يدها وتسحب منها زجاجة صغيرة، وتشرب بسرعة وحذر.

يفتح عينيه: «لا تشربي! ستصبحين ثملة!»

- تدافع عن نفسها: «دعني وشأني!» وهي تشعر بتعب لا يدع لها مجالاً لطرده، أصبحت مستعدة لفعل أي شيء حتى

تحافظ على حواسها متيقظة تماماً. لذلك، حتى حين يراقبها، تفرغ الزجاجة الثالثة ثم، كما لو أنها تُفَسِّر، كما لو أنها تعتذر، تردِّد أنها لم تمارس الحب منذ زمن طويل، وتقول ذلك هذه المرة بكلمات فاحشة بلغة إيثاكاها الأم، ومن جديد، يثير سحر البذاءة جوزيف فيستأنف ممارسة الحب معها.

في رأس إيرينا، يلعب الكحول دوراً مزدوجاً: يحرِّر خيالها ويشجع جرأتها، ويجعلها جنسية، وفي الوقت ذاته يحجب ذاكرتها. بوحشية وشبق، تمارس الحب، وفي الوقت ذاته، ستارة النسيان تغلف دعاراتها في ليلة تمحي كل شيء. كما لو أن شاعراً يكتب أعظم قصائده بحبر يتلاشى على الفور.

48

وضعت الأم الأسطوانة في جهاز كبير وضغطت على بعض الأزرار لتختار المقطوعات التي تحبها، ثم غطست في حوض الاستحمام ولأنها تركت الباب مفتوحاً، سمعت الموسيقى. كان هذا اختيارها، أربع مقطوعات راقصة، تانغو وفالس وشارلستون وروك أند رول، التي راحت تتكرر إلى ما لا نهاية دون تدخّل بفضل الدقة التقنية الفائقة للجهاز. وقفت في الحوض اغتسلت طويلاً، خرجت وتنشفت، ارتدت مئزر

الحمام وذهبت إلى الصالون. ثم وصل غوستاف بعد غداء طويل مع بعض السويديين العابرين في براغ وسألها عن مكان إيرينا. أجابت (بمزيج من إنجليزية رديئة وتشيكية مبسطة بالنسبة له): «اتصلت. لن تعود قبل المساء. كيف أكلت؟

- أكثر مما ينبغي!

- تناولْ مهضماً» وصبّت مشروباً روحياً في كأسين.

هتف غوستاف: «هذا ما لا أرفضه أبداً!»، وشرب

رَنَّمَتْ الأم لحن الفالس الصغير وهزت وركيها، ثم دون أن تقول شيئاً، وضعت يديها على كتفي غوستاف وقامت ببضع خطوات راقصة معه.

«قال غوستاف: أنت بمزاج رائع.

- أجل»، أجابت الأم، وتابعت الرقص بحركات ملحاحة ومسرحية إلى حدّ أن غوستاف، هو أيضاً، قام بخطوات وإيماءات مبالغة، تتخللها قهقهات قليلة وقحة. وافق على هذه الكوميديا التقليدية الساخرة ليبرهن أنه لا يريد إفساد أي دعابة، وفي الوقت نفسه لِيُذَكِّرَ بزهو خجول، أنه كان فيما مضى راقصاً رائعاً وأنه ظلّ كذلك دوماً. وهي ترقص، قادته الأم نحو المرآة الكبيرة المعلقة على الجدار وكلاهما التفتا ونظرا فيها.

ثم أفلتته، ودون أن يتلامسا، ارتجلا حركاتهما أمام المرآة؛ كان غوستاف يقوم بحركات راقصة من يديه ولم يكن

نظره، مثلها، يُفارق صورتهما. عندئذٍ شاهد يد الأم تستقر على قضيبه.

المشهد الذي يحدث يدل على خطأ مُغرِق في القِدم عند الرجال الذين منذ أن حازوا على دور الغاوين، لم يأخذوا بالاعتبار إلا النساء اللواتي قد يرغبون بهن؛ لا يخطر ببالهم أن امرأة قبيحة أو عجوز، أو امرأة توجد ببساطة خارج تصورهم الإيروتيكي، قد ترغب بمضاجعتهم. كانت مضاجعة والدة إيرينا بالنسبة إلى غوستاف غير واردة ووهمية وغير واقعية لدرجة أن ملامستها أذهلته فلم يدرِ ماذا يفعل: ردّة فعله الأولى كانت إزاحة اليد؛ مع ذلك، لم يتجرأ؛ ثمة إيعاز حُفِرَ فيه منذ فتوته: أنت لن تكن فظاً مع النساء؛ لذلك يواصل حركاته الراقصة وينظر مذهولاً إلى اليد المدسوسة بين ساقيه.

لا تزال اليد على قضيبه، والأم تتمايل في مكانها ولا تكفّ عن النظر إلى نفسها؛ ثم تترك مئزرها ينفتح فيرى غوستاف نهديها المكتنزين والمثلث الأسود في الأسفل؛ يشعر بانزعاج أن قضيبه يتضخم.

دون أن تترك عيناها المرآة، ترفع الأم أخيراً يدها، لكن لتدسها على الفور داخل بنطاله وتمسك قضيبه العاري بين أصابعها. لا يكف القضيب عن التصلب وهي، مستمرة بحركاتها الراقصة، ومحدقة دوماً في المرآة، تهتف متعجِّبة بصوت الألتو الراعش: «أوه، أوه! هذا ليس صحيحاً، هذا ليس صحيحاً!»

49

وهو يمارس الحب، ينظر جوزيف إلى ساعته مراراً بحذر: ما زال هناك ساعتان، ساعة ونصف؛ أمسية الحب هذه مذهلة، لا يريد أن يُضَيِّعَ منها شيئاً، ولا إيماءة، ولا كلمة، لكن النهاية تقترب، لا مفر منها، وعليه أن يراقب الزمن الذي يجري.

هي أيضاً تفكر بالزمن الذي يتقلص؛ يصبح فحشها بالأحرى متعجلاً ومحموماً، تتكلم قافزة من تخيل إلى آخر، متنبئة أن الوقت تأخر كثيراً، وأن هذا الهذيان يدرك نهايته وأن مستقبلها يظل خاوياً. تقول أيضاً بضعة كلمات فاحشة، لكنها تقولها باكية، ثم ترتعش من النحيب، لم تعد تحتمل، تكف تماماً عن الحركة وتبعده عن جسدها.

ها هما ممددين أحدهما بجانب الآخر وتقول: «لا تغادر اليوم، ابق أيضاً.

- لا أستطيع»

تصمت لبرهة مديدة، ثم: «متى سأراك ثانية؟»

لا يجيب.

بقرار مفاجئ، تخرج من السرير؛ لم تعُد تبكي؛ تلتفت نحوه وهي واقفة، وتقول له، دون أية عاطفة، لكن بعدوانية مفاجئة: «قبلني!»

يبقى مضطجعاً، متردداً.

تنتظره ساكنة، محدقة فيه بكل ثقل حياتها المحرومة من المستقبل.

غير قادر على تحمل نظرتها، يرضخ: ينهض يقترب، يضع شفتيه على شفتيها.

تتذوق قبلته، وتقدِّر درجة برودته وتقول: «أنت شرير!»

ثم تلتفت نحو حقيبتها الموضوعة على طاولة السرير. تسحب منها منفضة صغيرة وتعرضها عليه. «هل تعرفها؟»

يأخذ المنفضة وينظر إليها

«هل تعرفها» تكرِّر صارمة

لم يحر جواباً.

«انظر إلى النقش!»

إنه اسم حانة في براغ. لكن ذلك لم يعنِ له شيئاً فيصمت. تراقب ضيفه بريبة متيقظة، وتزداد عدوانية.

يشعر بنفسه منزعجاً تحت هذه النظرة وفي تلك اللحظة، على نحو خاطف، تعبر صورة نافذة مع إناء أزهار بجانب مصباح مضاء على حافتها، لكن الصورة تُمحى ويرى من جديد عينيها العدوانيتين.

فَهِمَتْ كل شيء: ليس فقط أنه نسي لقاءهما في الحانة، إنما الحقيقة أسوأ: إنه لا يعرف من تكون! لا يعرفها! في الطائرة لم يكن يعرف مع مَن يتكلم. وبعد ذلك تدرك فجأة: لم يخاطبها قط باسمها!

«أنتَ لا تعرف من أكون!

- كيف» يقول بطريقة مرتبكة على نحو يائس.

تكلمه كقاضي تحقيق: «إذاً، قل لي اسمي!»

يصمت.

«ما اسمي! قل لي اسمي!

- إنها بلا فائدة، الأسماء!

- أنت لم تنادني قط باسمي! إنك لا تعرفني!

- كيف!

- أين تعارفنا؟ من أكون؟»

يريد تهدئتها، فيُمسك يدها، تُبعده: «أنتَ لا تعرف من أكون! تَصَيَّدْتَ مجهولة! مارستَ الحب مع مجهولة عرضت نفسها عليك! استغليت سوء التفاهم! حظيت بي كعاهرة! كنتُ بالنسبة لك عاهرة، عاهرة مجهولة!»

تتهاوى فوق السرير وتبكي.

يرى زجاجات الكحول الثلاث فارغة وملقاة على الأرض: «لقد أفرطتِ في الشراب. كان من الحماقة أن تشربي إلى هذا الحد!»

لا تصغي إليه. وهي ممدَّدة على بطنها، وجسدها يضطرب بارتعاشات مفاجئة، لا يوجد في رأسها سوى العزلة التي تنتظرها.

ثم، كالمستسلمة للتعب، تكف عن البكاء وتنقلب على قفاها، تاركة ساقيها، دون علمها، متباعدتين بإهمال.

يظل جوزيف واقفاً عند حافة السرير؛ ينظر إلى فرجها كما لو أنه ينظر في الفراغ، وفجأة يرى المنزل القرميدي مع شجرة الصنوبر. ينظر إلى ساعته. لا يزال بوسعه البقاء في الفندق نصف ساعة. عليه أن يرتدي ملابسه وأن يجد وسيلة لإرغامها هي أيضاً على ارتداء ملابسها.

50

عندما انسحب من جسدها، ظلا صامتين، لم يكن يُسمع سوى أربع مقطوعات موسيقية تتكرر بلا نهاية. بعد برهة مديدة، وبصوت واضح وتقريباً احتفالي، تقول الأم بلغتها التشيكية - الإنجليزية وكأنها تتلو بنود معاهدة: «نحن قويان، أنا وأنت. We are strong، لكننا أيضاً طيبان، good، لن نسبب أذىً لأحد. لن يعرف أحد شيئاً. Nobody will know. أنت حر، تستطيع متى تشاء. لكنك لست مرغماً. معي، أنت حر. With me you are free!»

قالت ذلك هذه المرة دون أيّ تلاعب ساخر بالألفاظ، وبنبرة في منتهى الجدية. وأجاب غوستاف، هو أيضاً، بجدية: «أجل، أفهم»

«معي، أنت حر»، هذه الكلمات تُدَوِّي فيه مطولاً. الحرية: بحث عنها عند فتاته، لكنه لم يجدها. وهبت إيرينا نفسها له بكل ثقل حياتها، بينما كان هو يرغب بالعيش دون

ثقل. كان يبحث فيها عن مهرب وكانت تنتصب أمامه كتحدٍّ؛ كمأثرة عليه إنجازها؛ كقاضٍ عليه مواجهته.

يرى جسد عشيقته الجديدة ينهض عن الأريكة؛ ها هي واقفة، تعرضُ له جسدها من الخلف، فخذاها متماسكان مكسوان بالأنسجة؛ تسحره هذه الأنسجة كأنها تُعَبِّر عن حيوية البشرة التي تتماوج، تهتز، تتكلم، تغني، ترتج، تستعرض، وعندما تنحني لتتناول مئزرها المرمي على الأرض، لا يستطيع تمالك نفسه، وهو ممددٌ وعارٍ على الأريكة، يداعب هذين الوركين المكورين على نحو رائع، يجسُّ هذا اللحم التذكاري والوافر، الذي يواسيه ويهدئه سخاؤه المفرط. يلفه شعور بالسلام: للمرة الأولى في حياته، يوجد الجنس بعيداً عن أي خطر، بعيداً عن أي مشاحنات ومآسي، بعيداً عن أي اضطهاد، بعيداً عن أي شعور بالذنب، بعيداً عن القلق، لا يترتب عليه الاهتمام بأي شيء، فالحب هو الذي يهتم به، الحب كما رغبه وكما لم يمتلكه قط: حب - راحة؛ حب - نسيان؛ حب - فرار؛ حب - لامبالاة؛ حب - تفاهة.

ذهبت الأم إلى الحمام وبقي وحيداً: منذ بضع لحظات، فكر أنه ارتكب إثماً عظيماً؛ لكنه يعرف الآن أن ممارسته للحب لا علاقة لها بالرذيلة، أو بأي انتهاك أو انحراف، وأنها كانت طبيعية أكثر من الطبيعي. فمع الأم يشكل زوجاً عادياً وطبيعياً ولائقاً على نحو مقبول، زوجاً من شخصين مسنّين هادئين. يصل إلى مسامعه صوت الماء من الحمام، يجلس

على الأريكة وينظر إلى ساعته. خلال ساعتين سيأتي ابن عشيقته الجديدة، شاب يُعْجبه وسَيُدْخِله غوستاف هذا المساء بين أصدقائه في العمل. كان طوال حياته محاطاً بالنساء! فما أمتع أن يحظى أخيراً بابن! يبتسم ويبدأ البحث عن ملابسه المتناثرة على الأرض.

ينتهي من ارتداء ملابسه عندما تعود الأم من الحمام مرتدية ثوباً. إنها حالة أقل احتفالية ولذلك مربكة، كما هي دوماً الحالات التي يواجه فيها العشاق، بعد ممارسة الحب الأولى، مستقبلاً يُرْغَمَان فجأة على تحمل تبعاته. لا تزال الموسيقى تصدح، وفي هذه اللحظة الحساسة، كما لو أنها تريد أن تَهُبَّ لنجدتهما، تنتقل من الروك إلى التانغو. يُلَبيان هذه الدعوة، يتحاضنان ويستسلمان لهذه الموجة الرتيبة والبليدة من الأنغام؛ لا يفكران بشيء، يستسلمان للانقياد والانجراف؛ يرقصان مديداً ببطء، دون أية سخرية.

51

استغرق نحيبها زمناً طويلاً، ثم، كما لو أن معجزة حدثت، توقف، تبعه تنفس عميق: لقد نامت؛ كان هذا التبدل مدهشاً ومضحكاً على نحو محزن؛ كانت تنام بعمق نوماً لا يمكن قهره. لم تُغَيِّر من وضعيتها وظلت مستلقية على ظهرها وساقيها متباعدتين.

كان لا يزال ينظر إلى فرجها، ذلك المكان الصغير جداً الذي يؤمِّن، باقتصاد مذهل للمدى، أربع وظائف عظيمة: الإثارة؛ المجامعة؛ الولادة؛ التبول. نظر مديداً إلى هذا المكان البائس المزيل للوهم واستولى عليه حزن عظيم، عظيم.

ركع إلى جانب السرير، منحنياً فوق رأسها الذي يشخر برقّة؛ كانت هذه المرأة قريبة منه؛ كان يمكنه أن يتخيل البقاء معها، والاهتمام بها؛ كانا قد تواعدا في المطار على عدم الاستعلام عن حياتهما الخاصة، لذلك لم يكن يعرف شيئاً عنها، لكن ثمة ما كان يبدو له واضحاً: كانت تحبه؛ ومستعدة لأن تذهب معه وتتخلى عن كل شيء وتبدأ من جديد. كان يعرف أنها تناديه لنجدتها. وكانت لديه فرصة، بالتأكيد الأخيرة، ليكون مفيداً، ليساعد أحداً وليعثر على أخت بين هذا الحشد من الغرباء الذين يكتظ بهم كوكبه.

بدأ يرتدي ملابسه، بحذر وصمت، حتى لا يوقظها.

52

كما في كل أمسيات يوم الأحد، كانت وحيدة في محترفها العلمي المتواضع والبائس. تذهب وتجيء في الغرفة وتأكل طعام فترة الظهيرة ذاته: جبن وزبدة وخبز وبيرة. ولأنها نباتية، فهي محكومة بهذه الرتابة الغذائية. منذ إقامتها في مشفى الجبل، صار اللحم يذكِّرها أن جسدها يمكن أن يُقَطَّع

ويُؤْكَل مثل لحم العجل تماماً. بالتأكيد الناس لا يأكلون اللحم البشري، فذلك يرعبهم، لكن هذا الرعب لا ينفكّ يؤكِّد أن الإنسان يمكن أن يُؤْكل ويُمْضغ ويُبْتلع ويتحول إلى فضلات. وتعرف ميلادا أن الرعب من أن يُؤْكَل الإنسان ليس إلا نتيجة رعب آخر أعمّ وموجود في أعماق صميم الحياة: الرعب من أن يكون جسداً، من أن يوجد بشكل جسد.

أنهت عشاءها وذهبت إلى الحمام لتغسل يديها. ثم رفعت رأسها وشاهدت نفسها في المرآة فوق المغسلة. أصبحت نظرتها مختلفة تماماً عن تلك النظرة التي لاحظت بها جمالها في الواجهة منذ قليل. هذه المرة، كانت النظرة ثاقبة، ورفعت ببطء شعرها الذي يؤطر وجنتيها. نظرت، كالمنوَّمة مغناطيسياً، مديداً، مديداً جداً، ثم تركت شعرها يسقط من جديد، وسرحته من جديد حول الوجه وعادت إلى الغرفة.

في الجامعة، كانت تغويها أحلام السفر نحو نجوم أخرى. يا لسعادة الفرار بعيداً في الكون، إلى مكان ما تتبدى فيه الحياة بطريقة مختلفة عن هنا ولا تحتاج إلى جسد! لكنه رغم كل صواريخه المذهلة، لن يتقدم الإنسان أبداً بعيداً عن الكون. قِصَرُ حياته سيجعل من السماء غطاءً أسود سيتحطم عليه دوماً رأسه ثم سيسقط من جديد على الأرض حيث كل من يعيش يأكل وربما يُؤْكَل.

بؤس وكبرياء. «على جوادِ الموتُ وطاووس» كانت واقفة أمام النافذة وتنظر إلى السماء. سماء بلا نجوم، غطاء أسود.

53

وضع كل أمتعته في حقيبة وألقى نظرة في أنحاء الغرفة حتى لا ينسى شيئاً. ثم جلس إلى الطاولة وعلى قصاصة ورق مُرَوَّسَة بعنوان الفندق كتب:

«نوماً هنيئاً. الغرفة لكِ حتى بعد ظهر الغد. . .» وَدَّ أن يقول لها أيضاً شيئاً فائق الرقة، لكنه كان في الوقت ذاته يكبح نفسه عن ترك أي كلمة زائفة لها. في النهاية، أضاف «. . . يا أختاه»

وضع الورقة على طاولة بجانب السرير ليتأكد أنها ستراها.

تناول لوحة مكتوب عليها بالفرنسية والإنجليزية: **يرجى عدم الإزعاج**؛ وهو يخرج، التفت إليها أيضاً وهي نائمة، وفي الممر علَّق اللوحة على مقبض الباب وأغلقه دون ضجة.

في البهو، كان يسمع في كل مكان كلاماً بالتشيكية وكانت من جديد لغة رتيبة ومنفرة على نحو كريه، لغة مجهولة.

وهو يسدد الحساب، قال: «هناك سيدة بقيت في غرفتي. ستغادر فيما بعد» وحتى يتأكد أن أحداً لن ينظر إليها نظرة سيئة، وضع أمام عاملة الاستقبال ورقة من فئة الخمسمئة كرون.

استقل سيارة أجرة وانطلق إلى المطار. كان المساء قد حلّ. أقلعت الطائرة نحو سماء سوداء، ثم اخترقت السحب. بعد بضع دقائق، تكشفت السماء وديعة وودية، مرصعة بالنجوم. حين نظر من نافذة الطائرة، شاهد في عمق السماء، سياجاً خشبياً واطئاً، وأمام منزل قرميدي، شجرة صنوبر ممشوقة كذراع مرفوعة.

ميلان كونديرا

الجهل

في **الجهل**، يقدم لنا ميلان كونديرا نصاً قوياً حول المنفى واستحالة أي عودة حقيقية إلى البلد الذي غادرناه. ويحكي لنا بأسلوب حميمي وأحياناً فظ إزاء شخصياته، عن المنفى والانسلاخ عن الجذور، وبالنتيجة عن الحنين والعودة ووحشة العودة الموسومة بالخيبة.

الشخصيتان محور هذا الكتاب هما إيرينا وجوزيف اللذان نفاهما التاريخ بعيداً عن وطنهما، ويقرران العودة إلى بلدهما في إجازة قصيرة، يجربان حالات لمِّ الشمل لكن الأحداث لا تجري كما يتوقعان، وتأتي المشاعر والأحاسيس المتناقضة لتشويه الصورة المعتادة عن العودة إلى البلد.

شخصيات ميلان كونديرا تذهب وتأتي وتسعى للرسو في مكان ما. تتقاطع المصائر وتتصادم وتخفق. وعندئذٍ تمتزج المشاعر المتناقضة بينما يبقى وَجْهُ الجهل موجوداً في كل مكان، كلّي الوجود: جهلٌ بالبلد، جهلٌ بالتطورات والتبدلات، وأيضاً جهلٌ بالأشخاص في ما يتعلق بتشابهاتهم، بواسطة لعبة تزييف الذاكرة أو هشاشة العلاقات.

في نهاية المطاف، تبرهن **الجهل** أنها رواية آسرة وأن كونديرا يصفعنا بحقائقه، المحتومة والمربكة، المتشائمة والحالمة، حول الشيوعية والعلاقات الإنسانية والعلاقات الزوجية وسوء الفهم الغرامي، وأمور أخرى كثيرة جداً... لكن كيف يمكن للمرء أن يقارب هذا العدد من الموضوعات، وبمنتهى الدقة، في هذا العدد الضئيل من الصفحات؟ هذا سر كونديرا...

لوحة الغلاف لبيكاسو

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com

ISBN 978-9953-68-648-6
9 789953 686486